مؤسسة عبد الله كنون الحسني
للثقافة والبحث العلمي

أدب الفقهاء

تأليف

العلامة الأديب

عبد الله كنّون



دار الكتب العلمية
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
أسسها محمد علي بيضون
سنة 1971 بيروت - لبنان
DKI



تأليف

العلامة الأديب

عبد الله كنّون



الكتاب : أدب الفقهاء

Title : ADAB AL-FUQAHĀ'

التصنيف : أدب

Classification: Literature

المؤلف : العلامة الأديب عبد الله كنّون

Author : Abdellah Guennoun

الناشر : دار الكتـــب العلميـــة - بيـــروت

Publisher: Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

Pages	264	عدد الصفحات
Size	14.5 x 21.5 cm	قياس الصفحات
Year	2014 A.D - 1435 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنـــان
Edition : 1st		الطبعة : الأولى عن دار الكتب العلمية

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah,
Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon,
Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٨٠٤٨١٠/١١/١٢ ٥ ٩٦١+
فاكس: ٨٠٤٨١٣ ٥ ٩٦١+
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



ISBN-13: 978-2-7451-8342-2
ISBN-10: 2-7451-8342-7

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بحث طريف في موضوع أدبي شائق ، طالما أغفله الكتاب وتجنّى عليه النقاد ، وهو أدب الفقهاء وأعني شعرهم المغموز ظلماً بالضعف ، والمضروب مثلاً لكل شعر ليس بذاك . فالآن أوانُ إنصافه ورد الاعتبار إليه .

وقد قسمته قسمين ، قسماً تناولت فيه مادته وعناصره الأولى بحسب الزمن والأشخاص، وقسماً تعرضت فيه لموضوعاته وأغراضه على سبيل البسْط والتعريف .

ولم يكن باعثي عليه إلا أريحية الأدب والاهتمام بجمع شوارده ونظم فرائده التي درَجَ مؤلّفو الآداب على استبعادها من النصوص الأدبية لمجرد أنها إنتاج طائفةٍ من الأدباء غاب عليهم وصف آخر غير الأدب وهو الفقه والعلم ، مع أن في دراستها وعرْضها العرض الذي يجلو محاسنها مُتعةً وإثراء لأدبنا العربيّ الأصيل .

ومن هُنا يُعلم أن قصدي من المحاماة عن أدب الفقهاء هو توجيه الدراسات الأدبية إلى استيعاب أعمال الأدباء بالمعنى الواسع وعدم الاقتصار على المنتخبات المعروفة ، والأسماء الرسمية ، فإن في كنوز الأدب العربي أعلاقاً وذخائر ما زالت لم تدرس أو لم تُستكشف بعد .

وعسى أن يكون في هذا العمل ما يثير الانتباه إلى هذه الكنوز المنسية ويحمل على استخراج محتوياتها النفيسة .

عبد الله كنون الحسني



أدب الفقهاء

القسم الأوّل

مادّتُه وأحكامه

مَدْخل

روى العلامة ابن خلدون عن ابي القاسم بن رضوان كاتب العلامة السلطانية بالدولة المرينية قال : ذاكرت يوماً صاحبنا أبا العباس أحمد بن شعيب (الجِزنّائي) كاتب السلطان أبي الحسن المريني ، وكان المقدم في البصر باللسان لعهده ، فأنشدته مطلع قصيدة أبي الفضل ابن النحوي ، ولم أنسبها إليه ، وهو هذا :

لم أدر حين وقفتُ بالأطلال

ما الفرقُ بين جديدها والبالي

فقال لي على البديهة : هذا شعر فقيه . فقلت له : ومن أين لك ذلك ؟ قال من قوله « ما الفرق ؟ » إذ هي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب .

وهذا صحيح فإن لكلام العرب أساليب لا يحذِقها إلاّ من مارسها أشدَّ الممارسة ، وكان محفوظُه من النظم والنثر كثيراً جداً ، فهو إذا أراد الانفاق أنفق من سعة ، ولم يقع في ضائقة تلجئه إلى القصور عما يريد التعبير عنه ، وهل الكلام إلاّ من الكلام ؟

ونتخذ الجِزنّائي نفسه مثالاً لصدق هذا القول ، فقد كان

يحفظ عشرين ألف بيت من شعر المُحدَثين فقط ، فما ظنك بما كان يحفظه من شعر الأقدمين ؟ ولذلك نبغ منه شاعر عظيم وناقد كبير قال فيه ابن خلدون : « وكان له شعر سابق به الفحول من المتقدمين والمتأخرين وكانت له الامامة في نقد الشعر » .

على أن الحفظ وحده لا يكفي ، بل لا بدّ من المَلَكة ، وهي الاستعداد النفسي الذي ينميه الحفظ وتصقله الممارسة .

والمَلَكَةُ غيرُ الذوق الذي يتحدث عنه علماء البيان ويقولون أيضاً أن الحفظ لكلام العرب والممارسة لأساليبها في النظم والنثر مما يُكوّنُه ويُربّيه ، فإن الملكة هي طاقة الانتاج وتحتاج إلى الذوق ليكون الانتاج رفيعاً . والذوق معيار النقد فصاحبه يعرف وجوه الحسن والقبح في الكلام ولكنه لا يكون أديباً إلاّ إذا كان صاحبَ مَلَكَة . وقد كان في العرب نقاد لهم بصر بجيد الشعر وبليغ النثر ولكنهم لا يستطيعون إنتاج أثر مّا في أي باب من أبواب القول . ومنهم الأصمعي الذي قيل له : لِمَ لا تقول الشعر مع سعة روايتك له ومعرفتك بجيّده ورديئه ؟ فقال : الذي أُريده منه لا يأتيني ، والذي يأتيني لا أريده .

وفي زمننا هذا الدكتور طه حسين مثلاً فإنه على رسوخ قدمه في نقد الشعر لا ينظم منه شيئاً .

وهناك من يجمع بين الملكة والذوق فيكون أديباً وناقداً ، كاتباً وشاعراً كالعقّاد من المعاصرين وصاحبنا الجزنّائي من المتقدمين .

والغريب فيه أنه كان صاحب ثقافة علمية واسعة إلى ثقافته الأدبية المتينة . فقد كان بارعاً في العلوم العقلية من الفلسفة والتعاليم والطب ، وتهتّك في الكيمياء القديمة حتى عُرِف بذلك ، ولم يمنعه هذا من أن يكون شاعراً فحلاً ، ولا جعل أدبه أدب فقهاء أو علماء بتعبير آخر ، مما يدلّ على أنه لا مناقضة بين الفقه والأدب والعِلْم والشعر ، وأن القضية إنما هي قضيّة تمكّن من المادة الأدبية نظماً ونثراً إلى ملكة قوية وذوق مهذب ، وإن كان صاحب ذلك اماماً في الفقه ورأساً في العلم . ويرحم الله الشافعي إذ يقول :

ولولا الشعرُ بالعلماء يَزْرِي
لكنتُ اليوم أشعرَ من لَبيد

ونحن نرى اليوم علماء مختصين برعوا في الأدب وفي الشعرِ بالذات حتى غطّى أدبُهم على علمهم ، منهم الدكتور أحمد زكي ابو شادي والمهندس علي محمود طه ، وكلاهما من أصحاب الدواوين المتعددة فلتنظر .

ومن شعر الجزنائي الذي ينِمّ عن نفَسه العالي هذه الأبيات

التي يقولها في التشوق إلى الحبيب :

يا مُوحشي والبعد دون لقائه
أدعوك عن شَحْط وإن لم تسمع

يُدنيك مني الشوق حتى إنّني
لأراك رأيَ العين لولا أدمعي

وأحنّ شوقاً للنسيم إذا سرى
بحديثكم وأصيخ كالمستطلع

كان اللقاءُ فكان حظّي ناظري
وسطا الفراقُ فصار حظي مسمعي

فابعَثْ خيالك تهدِه نارُ الحشا
ان كان يجهل من مقامي موضعي

نقد كلمة الجزنائي

ونعود إلى كلمة صاحبنا وحكمه على بيت ابن النحوي بأنه شعر فقيه من قوله : « ما الفرق » لأنها من عبارات الفقهاء . فهل مجرد استعمال عبارة من عبارات الفقهاء أو غيرهم من العلماء يخرج الشعر عن كونه شعر أديب ؟

وإذن فبماذا نحكم على قول شاعر العرب الأكبر أبي الطيب المتنبي :

تخالَف الناسُ حتى لا اتفاقَ لهم
إلاّ على شَجَب والخُلْفُ في الشجب

فقيل تخلص نفس المرء سالمة
وقيل تشرَكُ جسمَ المرء في العَطب

ومن تفكر في الدنيا ومهجته
أقامه الفكرُ بين العجز والتعب

وقد استعمل عبارة تخالف الناس ولفظ الخلف وجملة حتى لا اتفاق لهم وكلمة فقيل تَلْتَنْها وقيل أُخرى على سبيل التفصيل وكل ذلك من عبارات الفقهاء والنحويين وغيرهم من العلماء ، وهذا عنده وعند غيره من الشعراء كثير لا يخفى على الجزنائي ولا على من دونه معرفة وتحصيلاً ، بل ان علماء البديع يذكرون نوعاً من المُحسّنات يسمونه المذهب الكلامي وهو ما يُحتج فيه على المطلوب بحجة تشبه حجج علماء الكلام . وثمّ أيضاً الاقتباس وهو الاخذ من مصطلحات العلماءِ على اختلافِ اختصاصاتهم وقد وقع في كلام المتنبي نفسه كقوله مُقتبِساً من علم الفقه :

بَليتُ بِلَى الأطلال إن لم أقف بها
وقوف شحيح ضاع في التّربِ خاتَمُه

قِفي تغْرمي الأولى من اللحظ مهجتي
بثانية (والمتلفُ الشيءَ غارمُه)

واشتهر قول الشمس بن العفيف حتى بين المُطرِبين ودخل في القِطَع الشعرية المستعملة في الموسيقى الاندلسية وهو :

يـا ساكناً قلبيَ المُعَنّى ... وليس فيه سواك ثان
لِأيّ معنى كسَرْتَ قلبي ... وما التْقَى فيه ساكنان

وفيه اقتباس قاعدة نحوية معروفة بألفاظ النحاة واصطلاحاتهم فهل ما يتواضع عليه أهل البيان ويقع في كلام المُبرّزين من أمراء الشعر ويتنغّم به أصحابُ الفن يُعَدّ من الأدب المدخول ويكون في نظر الناقد الأدبي ليس بذاك ؟ !

وجاء في قصيدة لأبي العتاهية هذا البيت في الاتعاظ بالموتى والقبور :

ولقد وقفتُ على القبور فما ... فرّقتُ بين العبد والمولى

وهذه هي عبارة البيت الذي انتقده الجزنائي تقريباً ، ولا قائل بأن أبا العتاهية ليس بشاعر أو أن شعره شعر فقيه .

أما إذا نظرنا إلى الأدب الحديث وخاصة هذا الشعر الذي يسمى بالشعر الحر ، فإنّا نجده قد كسر هذه الموازين ولم يعبأ بتقليد من هذه التقاليد الأدبية حتى أنه يقع في تعابير نابية عن الذوق ويقتبس من اصطلاح البحّارة والحمّالة ومن اليهم

بلْهَ اصطلاحات العلماء وذوي الاختصاص في مختلف فنون المعرفة .

ولعل الحكم الصائب في هذه المسألة هو أن المدار على وضع الكلمة أو المصطلح في الجملة أو الفقرة التي تتضمنها فإن كان ذلك مما لعب فيه الذوق الفني دوره وأداه بعناية ، كان مقبولا ومستحسناً وإلاّ بأن تقلقلت العبارة وضاقت باللفظة المقتبسة فإن من حق الناقد أن يدينَ الأثر الأدبي الذي يقع في هذا المحظور ويحكم عليه حكماً مُسمّطاً . ونحن إذا اعتبرنا موقف الحيرة التي استولت على شاعرنا الفقيه حقاً ، وما اعتراه من الذهول عند رؤيته لأطلال منازل الأحبّة ، وتَشتّتَ فكره بين ذكر العهود التي سلفت له في هذه المنازل وما آل إليه أمرها من الدروس والدثور ، نرى أنه عبّر عن شعوره بما فيه بلاغ وأدى ما يجول بخاطره في بيت شعري مؤثر ، بقَطع النظر عما استعمل فيه من الألفاظ المعهودة عند الفقهاء أو غيرهم ، لأن المُهم هو أنه صور مشاعره ونقلها إلينا بما جعلنا نحسّ إحساسَه ولا زائد ، وليس هو بأولى من المتنبي وغيره من الأدباء الذين ليسوا بفقهاء ، بِتجنّبِ استعمال العبارات العلمية والاقتباس من المصطلحات الفنية .

أبو الفضل بن النحوي

على أن شاعرنا أبا الفضل بن النحوي يُعدّ من الشخصيات

المزدوجة الثقافة ، فهو مع رسوخ قدمه في الفقه له البراعة في الأدب والشعر ، وحسبُك منه قصيدتُه المعروفة بالمُنْفَرِجَة التي اشتهرت بين العلماء والأدباء على السواء حتى نسج على مِنْوالها كثير من الشعراء فعارضوها وشطروها . وهي التي يقول في أولها :

اشتدّي أزمةُ تنفرجي قد آذَنَ صُبْحُكِ بالبَلَجِ
وظلامُ الليل له سُرُجٌ حتى يأتِيَ أبو السُّرُج
وسحابُ الخير لها مطر فـإذا جاء الابّانُ تجي

واشتهر من شعره أيضاً هذان البيتان :

أصبحتُ فيمن لهم علمٌ بلا أدب
ومن لهـم أدبٌ عارٍ عنِ الدين
أصبحتُ فيهم غريبَ الشكل منفرداً
كبيْت حسان في ديوان سَحْنون

والشطر الأخير هو مما جرى مجرى الأمثال ، وقد يستشهد به من لا يعرف معناه . وبيانُه أنه ورّى بكتاب المُدوّنة المعروف في الفقه المالكي وسماه ديوان سحنون لأن سحنون الفقيه هو مؤلفه ، والمدونةُ على كِبَرها وكونها تقع في أربعة مجلدات ضِخام ليس فيها شعر إلاّ بيتُ حسّان بن ثابت شاعر النبي (ص) الذي يقول فيه مُعَرّضاً بقضية بني النّضير :

وهانَ على سَراةِ بني لُؤَيّ   حريقٌ بالبُوَيْرةِ مُستطيرُ

أدب الفقهاء باب واسع

وأدبُ الفُقهاء مادة خِصْبة للدراسة ، وباب واسع يتضمّن فنوناً وأغراضاً مختلفة ، بعضها مما يقِلّ نظيره في أدب غيرهم . فهو يشتمل على شعر وجداني من الطبقة الرفيعة يعبّر عن أعمق المشاعر الإنسانية ، وأرقّ العواطف القلبية . ومنه شعر فلسفي يتناول مطالب النفس العُليا ويتحدث عن الروح وعالَمها الفسيح ، ومشكلة الوجود والحقيقة الأزلية وما إلى ذلك . أما الأخلاق والآداب ، شرعيةً وسياسيةً ، فأدب الفقهاء هو منبَعُها الذي لا ينضب ، ومنجَمُها الذي يحتوي على ثروة طائلة لا نفادَ لها . ويمدحُ الفقهاء ويَرثُون كغيرهم من الأدباء . وربما هجَوْا ولكنهم لا يتخذون ذلك حِرْفةً كما يفعل غالب الأدباء . على أن مدحهم لا يكون لطلب دنيا ونيل جائزة من صاحب ولاية أو سلطان . إنهم كانوا لا يرغبون في القُرب من الملوك ولا يتملقونهم إلاّ من شذّ منهم ، ولذلك فإن أكثر مدحهم للرسول (ص) وأهل الفضل والكمال ، وتكتسي أمداحُهم حلة خاصة من السمو الروحي لصدورها عن ايمان صادق بالممدوح وكمالاته النفسية التي لا تشبه أوصاف الممدوحين العاديين. ومِن ثَم فإن كثيراً

من أمداحهم يُتغنّى بها ويكون لها من القبول ما ليس لأمداح فحول الشعراء وحين تكون هذه الأمداح في تمجيد الذات العلية والتغني بالحب الالهي فإنها تكتسب فوق ذلك صفة القداسة لدى جماعة المتصوفين .

وهناك مواضيع أخرى لأدب الفقهاء ، ونماذج هي أقرب ما تكون للشعر القصصي ، كبُردة البوصيري وهَمْزيته ، فإنها وإن كانت تعتمد المادة التاريخية في مضمونها ، لا تألو جُهداً في استخدام الخيال وتجسيم الصور وإثارة العواطف بما يجعل شكلها قريباً جداً من هذا الشعر القصصي الذي كثيراً ما يُتحدّثُ بخلو الأدب العربي منه . وعلى الأقل فإن هذا اللون الطَّريف من أدب الفقهاء يُكوّن باباً من الشعر لم يطرقه غيرهم من الأدباء. ويمكن أن نسميه شعر السّيَر إن لم يندرج في شعر القصص .

وبعد ذلك تبقى تفاريقُ وأشتاتٌ من أدب الفقهاء كالحديث عن الحياة العلمية وما لها من جمال يفوق في نظرهم جمال هذه الأشياء المادية التي ينقطع إليها غيرهم من الأدباء ويُفنون أعمارَهم فيها بغير فائدة ، وكالخصومات الأدبية التي تقع فيما بينهم فيتراشَقُون لأجلها السهام بطريقتهم الخاصة . وكعرض الحقائق العلمية في صور أدبية ، والالغاز العلمية وغير ذلك مما يعسر تتبعه .

بين شعر الفقهاء ونثرهم

وربّما يلاحظ القارىء أننا أكثر ما نتحدث عن الشعر ، ومدلول الأدب أعم من أن يُقتصرَ في الحديث عنه على الشعر دون إشارة إلى النثر . والواقع ان الباعث على كتابة هذا البحث هو النقد الذي يوجه إلى شعر الفقهاء خاصة دون نثرهم ، فإن النقاد درجوا على التعْبير بقولهم هذا شعر فقيه إذا وجدوا فيه مغمَزاً من الناحية التي تناولها الجزنائي الذي بَنَيْنا بحثنا هذا على كلامه ، فالشعر إذن هو محطّ النظر من أدب الفقهاء . وأما النثر فإن لهم فيه يداً طُولى قد تطْغَى على ما للأدباء في ذلك ، وما زالت كتابات الغزالي والطرطوشي وابن خلدون والراغب الاصبهاني وأمثالهم من النماذج العالية التي تُحتَذى في النثر العربي ، وبديهي أن ليس كل الفقهاء ممن برعوا في النثر وكانت لهم فيه هذه المكانة المرموقة ، وإنما الفرق ان النقاد لم يجدوا مثل هذا التفوق للفقهاء في الشعر فلاحظوا عليهم ضعف الملكة الشعرية ، وهم قلّما درسوا الآثار النثرية للفقهاء حتّى يحكموا بتفوقها وان سكتوا عليها لمّا لم يجدوا فيها مطعناً .

ونرى أن الوقت قد حان لدراسة النثر العربي من جديد وتقديم نماذجه الحية التي طالما غفل عنها مؤرخو الآداب والنقاد ، من آثار العلماء الذين ذكرناهم وغيرهم

من الرحالة والجغرافيين والمؤرخين والفقهاء والمتكلمين والصوفية وعدم الاقتصار على آثار الكُتّاب بالمعنى الضيق كابن العميد والحريري والقاضي الفاضل ولسان الدين ، فان تقدم المعرفة وتطور الأدب قد برهنا على أن نثر أولئك الأعلام هو المساير للطبيعة والموافق للذوق السليم .

ونحن اليوم على غِراره نطبع ، لا على ما كان متكلفاً من كتابات هؤلاء الأدباء المُتَنوّقِين .

أدب مستقل

ولا ينتمي هذا الأدب لطبقة من الطبقات ولا لعصر من العصور ، لأن مؤرخي الأدب أهملوه فبقي حراً لا يتقيد بحكم من أحكامهم في ذلك ، ولهذا يصح أن نرويه على ترتيب السنين أو على الموضوعات .

والحق أننا إذا نظرنا إليه من زاوية التاريخ وجدنا أنه يرجع إلى عصر السّليقة وطبقة من يُحتجّ بهم من شعراء العربية ، فإن ميلاده كان مقروناً مع ميلاد الاسلام ، ونحن إذا استثنينا شعراء الصحابة المعروفين الذين غلبت عليهم صفة الشاعرية كحسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وأمثالهما ، كان من بقي منهم ممن قال شعراً إما أن يكون غيرَ فقيه ، فهو معدود

في المُقلّين وأصحابِ الأبيات من الشعراء ، واما أن يكون فقيهاً فهو من الطلائع الأولى لهذا الصنف من الأدباء وهم عدد كثير ، ناهيك بأن منهم أبا بكر وعمر وعلياً (رض) .

قال سعيد بن المُسيّب كما في العقد الفريد : كان أبو بكر شاعراً وعمر شاعراً وعليّ أشعر الثلاثة . وأما الأنصار فكادوا يكونون كلهم شعراء . جاء في ترجمة أبي الدّرْداء (رض) انه قيل له : ليس رجل من الأنصار إلاّ وله شعر فلِمَ لمْ تقل أنت شعراً . قال وأنا قد قلت :

يُريد المرءُ أن يُعطى مُناه ويأبى اللهُ إلاّ ما أرادا
يقول المرءُ فائدتي ومالِي وتقوى الله أفضلُ ما استفادا

وأبو الدرداء من فقهاء الصحابة (رض) بل هو أحد الستة الذين انتهى إليهم علمُ النبي (ص) .

تحقيق في قول عليّ للشعر

ونظن انه لا حاجة بنا الى رواية شيء من شعر الخلفاء الثلاثة الذين ذكرناهم ولا من شعر غيرهم من الصحابة لشهرته ولذكره في تراجمهم . ولكن مسألة مهمة لها تعلق بالموضوع ،

لا نرى بأساً بتحقيقها هنا وهي ما شاع من عدم قول علي كرّم الله وجهه للشعر . غيرَ بيتيْن اثنين على ما جاء في القاموس المحيط للمجد الفيروزبادي وهما قوله :

تِلْكُم قريشٌ تمنّاني لِتقتُلني
فـلا وربِّـك ما برّوا ولا ظفِرُوا
فـإن هلكتُ فرهْنٌ ذمّتي لهـم
بِذاتِ ودْقَيْن لا يعفو لها أثر

نقله عن المازني ، ونقله المرزُباني في تاريخ النحاة عن يونس ، وصوّبه الزمخشري ، وهو غيرُ مُسلّم . وما زلنا نسمعه من علمائنا الذين يعُودون فيُنشِدون لِعليّ من الشعر الشيءَ الكثير . وصاحبُ القاموس نفسُه قد خالفه في مادة (خيس) فأنشد لعلي شعراً يُنظَرُ فيه .

وقد تعقب هذا القول اللغوي المحقق محمد بن الطيب الشّرقيّ الفاسي مُحشّي القاموس بقوله على ما عند الزّبيدي صاحب التاج :

« ولعل سنَد ذلك قوي لديهم وإلاّ فقد ورد عنه :
أنا الذي سمتني أمي حيدره ... الأبيات .
ونقل عنه المصنف (يعني الفيْروزبادي) في خيس شعراً.
وتواتر عنه : محمدٌ النبيّ أخي وصهري ... الأبيات .

وغير ذلك مما كثر وشاع بحيث أن النفوس لا تطمئن إلى أنه لم يقل غير هذين البيتين .

ثم نقل كلمة سعيد بن المسيب التي سقناها آنفاً في شاعرية الخلفاء الثلاثة ولكنه نسبها إلى الشعبي وزاد قائلاً : « نقله الحافظ أبو عمر بن عبد البر في الاسْتيعاب في ترجمة مِسْطَح ابن أثاثَة وذكر مثلَه جماعة . ونسب إليه من أشعار الحكم وغيرها شيئاً كثيراً . انتهى كلام ابن الطيب . وزاد عليه الزبيدي قائلاً :

ويروى أنه رضي الله عنه قال يوم خيبر :

دُونَكها مُتْرَعةً دِهاقا كأساً زُعاقاً مُزِجت زُعاقا

ثم قال : « وقرأت في تاريخ حلب لابن العديم ما نصه : أخرج يعقوب بن شبّة بن خلَف بن سالم ، حدثنا وهب بن جرير عن أبي الخطاب محمد بن سواء عن أبي جعفر محمد ابن مروان أن علياً قال :

لِمَن رايةٌ سوداءُ يخفق ظلّها
إذا قيل قدّمْها حُضَينُ تقدّما

فَيُورِدها في الصفّ حتى يقيلها
حياضَ المنايا تقطُر السمَّ والدما

جزَى الله قوْماً قاتلوا في لقائهم
لدى الموت قُدماً ما أعزَّ وأكرما
ربيعةَ أعني ، إنهم أهــلُ نجْــدة
وبأس إذا لاقَوا خَميساً عرَمْرَمَا

وأخرج أيضاً بسنده إلى أبي عبدالله ابراهيم بن محمد بن نِفْطوَيْه والحسن بن محمد بن سعيد العسكري قال : ومما يروى لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لمن راية سوداء ... الأبيات . قال : وقال السّدّي كانت رايته حمراء بصفّين فتأمل ذلك .

انتهى كلام الزبيدي . وما نقله عن السّدّي لا يقدح في نسبة الشعر لأن الرايات في صفّين كانت كثيرة لكل قبيلة راية . وقد جاء في العقد لابن عبد ربه « قال أبو عبيدة في التاج : جمع علي بن أبي طالب رئاسة بكر كلها يوم صفين لحصين بن المُنْذِر بن الحرث بن وَعْلة وجعل (ألويتها) تحت لوائه وكانت له راية سوداء يخفق ظلّها إذا أقبلَ فلم يُغن أحد في صفين غناءَه فقال فيه علي بن أبي طالب :

لِمَن راية سوداء يخفق ظلها — إذا قيل قدمها حصين تقدما
يقدمها في الصف حتى يُزيرها — حياضَ المنايا تقطر السم والدما
جزى الله عني والجزاءُ بكفه — ربيعةَ خيراً ما أعفَّ وأكرما

والبيت الأخير بهذا اللفظ من شواهد النحو وأصحاب

الشواهد ينسبونه لعلي كذلك، وحصين روى هنا بالصاد وهو بالضاد كما سبق عن الزبيدي .

وفي العقد أشعار أخرى لعلي كما في غيره من الكتب ، وقد جُمِع كثير منها في ديوان مطبوع إلاّ أنه لا يصحّ نسبة كل ما فيه إليه . فهذه الروايات التي ذكرناها فضلا عن التي تركناها مما عند الطبري وابن كثير وابن الأثير ونصر بن مزاحم في كتابه عن وقعة صفين وغيرهم في تلك الأبيات وغيرها ، مما لم يورد النافون قول الشعر عن علي غيرَ ذينْك البيتين ، قليلاً منه ولا كثيراً ، تجعلُنا لا نقبل قولهم ونرجّح بالرواية قولَه للشعر وإكثارَه منه ، وقد تقرر في الأصول أن المُثبِت مقدم على النافي وان من حفظ حجة على من لم يحفظ والعلم لله .

* * *

وإذا تجاوزنا عهد الصحابة إلى من بعدهم من التابعين والأئمة المجتهدين فإننا نجد بينهم الكثير من الفقهاء الذين قالوا الشعر الجيد وبذّوا في بعض المعاني الفحول من الشعراء بل اننا نجد من هؤلاء الفقهاء من لم يسع النقاد والمؤلفين في الأدب إلاّ أن يعترفوا بموهبتهم الشعرية ويعدوهم في جملة المتفوقين .

عُرْوة بن أُذَيْنَة

فهذا عروة بن أُذيْنَة شغل الناس بشعره الرقيق في الحبّ والغزل ، وكان كابن أبي ربيعة في تعلق النساء والمحبين بشعره ، إلاّ أنه لمْ يكنْ مثله في المجون والاستهتار ، بل كان على جانب من الصيانة والدين لا يرقى إليه الشك وهو معدود في التابعين ومن الفقهاء المحدّثين ، روى عن ابن عمر وروى عنه مالك بن أنس وغيره ، ونجد شعره في الأغاني والموشح وديوان الحماسة وسائر أمهات الكتب الأدبية . فمن أبياته السائرة الّتي ذكرها له صاحب الحماسة قوله :

إن الّتي زعمتْ فؤادكَ ملّهـا
خُلقتْ هواك كما خُلِقتَ هوى لها
بيضاء باكرَها النعيمُ فصـاغها
بلباقـة فأدقهـا وأجلّهـا
حجَبت تحيتهـا فقلت لصاحـبي
ما كـان أكثرها لنا وأقلها
وإذا وجدتُ لهـا وساوسَ سلوة
شفع الضمـير إلى الفؤاد فسلها

وهذه الأبيات من عيون الشعر وأحسنه تعبيراً عن عاطفة الحب الدفين في القلب ، الذي يظهره هذا الاعجاب بجمال المحبوب ، وهذه المطاوعة لهواه ولو جرى على عكس المراد .

انه حب مهذب وإن كان راسخ الجذور ، فهل نقول انه يمثل مجتمع المدينة الراقي أو نفسية صاحبه القوية بالعلم والتقوى ؟

في نظرنا أنه صدر عنهما معاً، فالبيئة بيئة نعيم وترف ألا ترى الى وصف المحبوبة ونشأتها الباكرة في النعيم الذي صاغها بمنتهى اللباقة فأدق منها ما ينبغي أن يدق وأجل منها ما ينبغي أن يجل ؟ وصاحبنا ذو أدب رفيع فهو إذ يتحدث عما زعمته من ملاله لها يَرُدّ ذلك بأقوى حجة في ألطف عبارة ، وهي أنهما خُلِقا أحدهما هوى للآخر فلا يمكن أن يتسرب الملال إلى قلبيهما . وكذلك يقول إذا عرض له منها ما يوجب ريبة أو يوسوس بسلوة ، فما كان أكثرها لنا وأقلها لها هو الاعتذار عن التحية التي حرمته منها ، وشفاعة الضمير أو رقابته هي الكفيل بطرد كل ما يساور فؤاده من وساوس السلو لو كان ممكناً . وبهذا التفكير الارستقراطي في الحب، ان صح التعبير ، الذي يبرز ما كان عليه الرجل من تهذيب رفيع ، وما كانت عليه الحياة في المدينة من تفتح وازدهار ، ثم بالصياغة الجميلة التي أفرغ فيها ، سارت هذه الأبيات كل مسار وغُنّي فيها وما تزال حتى الآن تعد من غرر الأبيات في الشعر العاطفي وان كان قائلها فقيهاً .

وأنشد له المرزباني هذه الأبيات المُطْرِبة :

لَبِثُوا ثلاثَ مِنىً بمنزل غبطة وهم على غرَض لعمرُك ما هم

متجاورين بغير دار إقامة لو قد أجد رحيلهم لم يندموا

ولهن بالبيت العتيق لُبانة والبيت يعرفهن لو يتكلمُ

لو كان حيّاً قبلهنّ ظعائناً حيا الحَطيمُ وجوههن وزمزَمُ

وكأنهنّ وقد حَسَرْنَ لواغباً بَيْضٌ بأكناف الحطيم مُركَّمُ

ولئن أخذ عليه أبو السائب المخزومي فيها عدمَ ندمه على رحيلهنّ ، فإنه غفل عن أن الرجل ذو طبع مدني رقيق وقد اكتفى بهذا اللقاء الموقوت الذي بلغ فيه من آمال نفسه ما سيكون متعة له يتملى بها إلى لقاء آخر مأمول .

وحكى في العقد أن امرأة وقفت عليه وهو في مجلسه فقالت له أنت الرجل الصالح الذي تقول :

إذا وَجَدْتُ أوَارَ الحب في كبدي
عمدتُ نحو سِقاء الماء أبْتَرِدُ
هبْني بردتُ بِبَرْد الماء ظاهره
فمَن لِنارٍ على الأحشاء تتقدُ

لا والله ما قال هذا رجل صالح .

وعلق ابن عبد ربه على قولها بهذه العبارة القاسية . « وكذبت

عدوةُ الله ، عليها لعنة الله .. بل لم يكن مُرائياً ولكنه كان مصدوراً فنفث . »

وهكذا دخل شعر ابن أُذينة على عقائل النساء، في خدورهن وهيج منهن مكامن الهوى ، فانبريْن له يؤنبنه ، وفي تأنيبهن اعتراف بما لقين منه ولقي منهن . والصورة التي في هذين البيتين جميلة حقاً ومُغرية بصدقها وبساطتها ، فلذلك أثارت من صاحبة الرجل الصالح ما أثارت .

وابن أُذينة هو صاحب هذين البيتين المشهورين :

لقد علمتُ وما الإسرافُ مِن خلُقي
أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى إليه فيُعْيِيني تطلّبُه
ولو قعدتُ أتاني لا يُعنّيني

ولهذين البيتين حكاية ، وهي أنه وفد على هشام بن عبد الملك في رجال من أهل المدينة ، فلما دخلوا عليه ذكروا حوائجهم فقضاها ثم التفت إلى عروة فقال له : ألستَ القائل : لقد علمت .. البيتين ؟ قال نعم : ما أراك إلاّ وقد سعيتَ له . قال سأنظر في أمري يا أمير المؤمنين . وخرج فجعل وجهته إلى المدينة . فبعث إليه هشام بألف دينار فوجده قد غادر دمشق ، فأمر له بها في المدينة . فلما جاءه الرسول قال

له : أبلغ أمير المؤمنين السلام وقلْ له : أنا كما قلتُ قد سعيت له فعييت في طلبه وقعدت عنه فأتاني لا يعنيني .

عُبَيْدُ الله بن عبدالله بن عُتْبَةَ بن مسعود

وعُبيدالله بن عبدالله بن عتبة بن مسعود أحد الفقهاء السبعة بالمدينة الذين اتفقت الأمة على توثيقهم وجلالتهم ، هو أيضاً ممن قال الشعر الحسن ولم يُدفَع بسبب فقهه عن إجادة . وله هذه الأبيات السائرة في الغزل وهي مما غُنِّيَ به :

كتمتَ الهوى حتى أضرّ بك الكتْمُ
ولامك أقوام ولومهم ظُلْمُ
ونَمَّ عليك الكاشحون وقبْلَ ذا
عليك الهوى قد نمَّ لو نفع النمُّ
فيا من لنفس لا تموت فينقضي
عَناها ولا تحيى حياة لها طعم
تجنبتَ إتيانَ الحبيب تأثماً
ألا إن هجران الحبيب هو الاثم

والأبيات تعبر عن عاطفة حبّ عنيف ، جَهَد الشاعر جهده في كتمانه ، ولكنه كان أقوى من إرادته ، فظهرت عليه أعراضه ، وافتضح أمره بين الناس ، فمن لأئم لا يعذِر ، ومن كاشح مغري بالنميمة ظلماً وشماتة ، حتى

صار الشاعر يتمنى الموت ليستريح من العناء فإن حياته أصبحت عبثاً لا معنى له ، وطعماً لا يجد له مذاقاً . إلا أنه يتراجع إذ تثور نفسه ويستبد به هواه فينبذ تلك الوساوس كلها ويصرخ من أعماقه : إلى الحبيب .. إلى منية النفس وقرة العين وسلوة الفؤاد .. ان هجران الحبيب خوفاً من الوقوع في الاثم لهو عين الاثم ..

وهذا من فقيه امام وتابعي جليل قد يستغربه القارىء ، بيد أنه إذا علم ما كان عليه مجتمع المدينة في الصدر الأول من حياة سمحة سهلة لمْ ير فيه غرابة . والقوم كانوا أكثر تفهماً لروح الاسلام منا اليوم فلم يكونوا يدّعون التصوُّن وهم يرتعون في المخالفات ولكنهم كانوا على رقة العاطفة وسلامة الذوق في منتهى العفة والصون ، والانسان مسؤول عما في ملكه وأما ما لا يملكه من ميل القلب فلا حرج عليه فيه .

ومما زاد في جمال هذه الأبياتِ وربما كان سبباً في اعفاء صاحبها من المسؤولية الأدبية ، أنها جاءت على أسلوب التجريد أي بصيغة الخطاب لا بصيغة التكلم ، فصلحت لأن يجد فيها كل محب مستهام تصويراً لمشاعره وتعبيراً عن أشواقه وذلك مما جعلها تفوز بالتزكية من عامة الأدباء والنقاد وتذكر في أمهات الدواوين وكتب الأدب .

والأيمة المجتهدون أصحاب المذاهب الفقهية المتبعة فيهم كذلك من قال الشعر ونظم القوافي ولم يشغله الاهتمام بتفريع المسائل والفتوى في النوازل عن الاسهام بحظه في الأدب على مستوى رفيع لا ينزل عن نِتاج الطبقة العالية من فحول الشعراء فمما رويناه عن شيوخنا من نظم الامام مالك قوله يمدح القناعة :

هي القناعةُ لا أرضى بها بدلاً
فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدن

وانظر لمن ملك الدنيا بأجمعها
هل فاز منها بغير اللحد والكفن

ومنه قوله في أدب السلوك :

إذا رفع الزمانُ عليك شخصاً — وكنت أحقَّ منه ولو تصاعدْ
أنِلْه حقَّ رتبته تجدْه — يُنيلك إن دنوت وإن تَباعدْ
ولا تقل الذي تدريه فيه — تكن رجلاً عن السوأى تقاعدْ
فكم في العُرْس ابهى من عرُوس — ولكن للعروس الدهرُ ساعدْ

وهي حكمة عملية لا نظير لها في أدب السلوك ومعاشرة الناس وتجربة حية ما تزال مُمارستها تعطي أحسن النتائج في مجالات الحياة اليومية . والفرق كبير بينها وبين قول القائل :

خبرتُ الرجال ومازجتُهم فكل يميل إلى شهوته
فلله در فتى عاقــل يُدير الأمور على فطنته
يجازي الصديق باحسانه ويبقي العدو إلى مدتــه
ويلبس للدهر أثوابــه ويرقُص للقِرْد في دولته

فهذه تُعلّم النفاق وتلك تُعلّم مُداراة النفس عن الهوى المذموم . وهذا هو الخيط الرفيع الذي يفصل بين أدب العلماء وأدب غيرهم .

ومما جربته من أثر هذه الحكمة أننا خرجنا يوماً لاستقبال أحد الاخوان الوطنيين وكان قادماً من سفرة طويلة بصدد الدعاية للقضية الوطنية فاحتشد الناس وجعلوا يهتفون باسمه وأسماء الوطنيين الآخرين وكان ممكناً أن يقع لذلك رد فعل عند بعض الحاضرين فقلت لأولئك الذين يهتفون : اننا اليوم في عرس فلان ، الشخص القادم ، وفي العُرس لا يهتف إلا باسم العروس ، فكفوا عن تلك الهتافات المختلفة وحُمِد أثر ذلك التوجيه الذي لم يسيء إلى شعور أحد من أولئك الناس الطيّبي النفوس .

وكتب إليّ صديقي الأديب السوري الكبير الدكتور زكي محاسني وكان في كتابه ما جعلني أسلّيه بأبيات الامام هذه عند جوابي له . فعاودني بكتاب آخر يقول فيه : « أخذت

اليوم رسالتك الكريمة وتلوتها بهزة وشوق ، وجعلتها نبراسي ومذهبي ، لما تضمّنَتْ من جليل القول وكبير الموعظة والسداد، وقد حام في خاطري الشعر فرحت أقول فيك :

تحياتُ الحبيب وان تباعد تجيئُك والفؤاد بها تصاعد
أيا كنّون والمكنونُ وجد أراه على مدى بُعدٍ تزايد
وجدتك منحة الدنيا فدعني أنل قرباك في حظ توافد
لأنتَ الشمس تشرق من غروب على اشعاعها قلبي توارد
بنيت لقومك العالين مجداً ومثلُك من لداعي المجد جاهد

ولعل ربة الشعر التي ألهمت من قال : فكم في العرس البيت هي التي الهمتني » .

وقصدت بإيراد هذه الفذلكة من كتاب الدكتور محاسني بيان الأثر المحمود الذي كان لأبيات الامام مالك على رجل من ذوي الثقافة العالية في عصرنا هذا ، مما يؤكد انها ذات قيمة عالية في أسواق الحكمة والأدب . واستغفر الله مما رويت من مدح وإطراء فإني لست عند نفسي ولا عند الناس بهذه المثابة ، إلاّ أن حسن نية الصديق جعله ينظر إلي هذه النظرة.

وقد كان من اللياقة وحسن الأدب أن أجيبه على أبياته نظماً فكان هذا هو الجواب :

صديقٌ في مكانته قريب وإن كان المكانُ به تباعد
(زكيّ) النفس ذو خلق رضي فمِمّا قد تنازل قد تصاعد
(محاسنه) على الأيام تتلى فكائِنْ مَن بها عُجْباً تواجد
بنَى فيها على أصل أصيل ولم يكُ عن مداركها تقاعد

وأردت بالبيت الأخير الاشارة إلى سلفه المذكور في مقدمة نفح الطيب وتنويه المقري به . وعلى كل حال فهذا شعرٌ لإمام الفقهاء مالك رحمه الله قد أوحى إلينا بمعانٍ كثيرة حتّى جاريناه في نهجه وأسلوبه وذلك منتهى نجاح التجربة الشعرية عند قوم وهبوا أنفسهم للشعر ، فماذا يطلب من الفقيه أكثر من ذلك ؟

الشافعي

ومحمد بن إدريس الشافعي الامام المجتهد ، على فقهه وعلمه كان شاعراً مفلقاً . وهو القائل كما تقدم :

ولولا الشعرُ بالعلماء يزري لكنتُ اليوم أشعَرَ من لَبيد

وشعره في الأخلاق والآداب والنصائح مما امتلأت به الدواوين . ومنه هذه الأبيات :

إن الذي رُزِقَ اليسارَ ولم يصب
حمـــداً ولا أجراً لَغيرُ موفّـــق

والجَدّ يدني كل شيء شاسع والجد يفتح كل باب مُغلَق
وأحق خلق الله بالهم امرؤٌ ذو همة عليا وعيْش ضيق
ومن الدليل علـى القضاء وكونـه
بؤسُ اللبيب وطيبُ عيش الأحمق

واشتهر من قوله في الاعتزاز بالنفس :

عليَّ ثيابٌ لو تبـاعُ جميعهـا
بفلس لكان الفلس منهن أكثرا

وفيهن نفس لو تقـاس ببعضها
نفوس الورى كانت أجـل وأكبرا

ومما يحكى من أدبه أنه وقفتْ عليه امرأةٌ برُقعة فتناولها فإذا فيها :

سَلُوا المفتيَ المكّيَّ هل في تَزاوُر
وضمَّة محزون الفؤاد جُنـاحُ

فقرأها وكتب تحت البيت :

معاذَ إله الناس أن يُذهِبَ التقى
تلاصُقُ أكبـاد بهـن جِراحُ

وقد استراب أبو الطاهر بن زيادة بهذه الحكاية على كثرة اسنادها للشافعي وجعل البيت على ثبوتها من الشعر المُوجّه ، والمعنى : معاذ الله أن يفعل هذا تقي فيذهب بتقواه . على أنها رُويت بوجه آخر من طريق الربيع بن سليمان صاحب الشافعي وان السائل كان فتى هاشمياً يعرفه الامام وكان حديث البناء بأهله وهو في شهر رمضان فسؤاله يتعلق بالضم والتقبيل في حالة الصوم من غير بطلان له .

وأصحاب الشافعي على عذر في أن ينفوا عنه هذا القول أو يؤولوه بما ذُكِر لأنه كان بمقام القُدوة فيُخشى أن يتعلق به المُجّانُ والنُسّاكُ مع أنه ان صح انما كان نفحة من نفحات الأدب واريحيته . وللشافعي ديوان شعر معروف .

عبدالله بن المبارك

امام من أئمة العلم والدين روى عن مالك والثّوْري وتلك الطبقة وأدرك جاهاً عظيماً . وكان يقولُ الشعر ، وشعره من هذا الأدب الملتزم الذي يهدف إلى أسمى الغايات من اصلاح المُجتمع وانتقاد الساسة المتلاعبين بالدين والعلماء الذين تفسدهم

الاطماع فيصبحون محل استغلال هؤلاء الساسة . فمن ذلك قوله :

قـــد يفتح المرءُ حانوتاً لِمَتْجَرِه
وقد فتحتَ لك الحانوت بالدين

بين الاساطين حانوتٌ بلا غلَق
تبْتَاع بالدين أمـــوالَ المساكـين

صيَّرتَ دينك شاهيناً تصيدُ بـــه
وليس يُفلح أصحـــابُ الشواهين

وكان يتَّجر ويقول لولا خمسة ما اتَّجرت : السفيانان وفُضَيل وابن السمّاك وابن عُلَيّة أي ليصلهم . فولي ابنُ علية القضاء فلم يأته ولم يصله . فأتى إليه ابنُ علية فلم يرفع رأسه إليه . ثم كتب إليه ابن المبارك يقول :

يا جاعِلَ العلم له بازِياً	يصطاد أموالَ المساكين
احتلتَ للدنيا وزينتِهَا	بحيلة تذهَب بالديـــن
فصرتَ مجنوناً بها بعد ما	كنتَ دواء للمجانـــين
أين روايتُك في سردِها	بترك أبواب السلاطين
أين روايتُك فيما مضى	عن ابن عوْف وابن سيرين
ان قلتَ اكرهتُ فذا باطل	زلّ حمارُ الشيخ في الطين

فلما وقف اسماعيل بن علية على الأبيات ذهب إلى الرشيد ولم يزل به يستعفيه من القضاء حتى أعفاه .

ومغزى هذا الموقف من حفظ كرامة العلم وصيانة الدين عن الشبَـه أظهر من أن ينبه عليه .

وأنشد له ابنُ عبد البَرّ في جامع بيان العلم :

رأيتُ الذنوب تميت القلوب ويورثُك الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوب حياةُ القلوب وخيرٌ لنفسك عصيانُها
وهل أفسد الدين إلاّ الملوك وأحبارُ سوءٍ ورهبانُها
وباعُوا النفوس فلم يربحوا ولم تغلُ في البيع أثمانُها
لقد رتَعَ القومُ في جيفَة يَبين لذي اللب إنتانُها

والأبياتُ الثلاثة الأخيرة منها عنْقاءُ مُغرب في النقد الاجتماعي والسياسي وهي مشتهرة بين دعاة الاصلاح الديني وارِدة على لسانهم منذ قالها ابن المبارك وحُقَّ لها ذلك .

* * *

ولم أُعَرِّجْ على ذكر القضاة أمثال شُرَيْح ويحيى بن أكثم وأحمد بن أبي دُؤاد ، فإنهم بحكم منصبهم الكبير ومداخلتهم للخلفاء وتعلّق آمال الناس بهم ومدح الشعراء لهم وقيامهم

في المقامات المشهودة وتمكنهم من ناصية الكلام ، قد ارتفعوا عن مستوى الفقهاء الذين لا يُظن بهم الأدب ويُنتقَد شعرهم بمجافاته لأساليب العرب .. على أن تتبع ذلك يطول فلننتقل إلى طبقة الفقهاء المتقدمين من أتباع المذاهب بعدما ذكرنا من شعر فقهاء التابعين والأئمة المجتهدين . فمنهم :

أحمد بن المُعَذَّل

من فقهاء المالكية الكبار ، ولم يكن لمالك بالعراق أرفع منه ، كان يسمى الراهب لفقهه ونُسكه وكان يعدل بأحمد ابن حنبل . وهو أخو عبد الصمد بن المعذل الشاعر المشهور . وكان يسكن مع أخيه في دار واحدة . وكان عبد الصمد منهمكاً في الشراب ، فكان أحمد يبكر إلى صلاة الصبح وهو امام المسجد ، فيمر بأخيه وهو سكران فيحركه ويقول (أفأَمِنَ الذين مكروا السيّئات أن يخسف الله بهم الأرض) الآية . وتارة يقول (أفأَمِنَ أهل القرى أن يأتيهم بأسنا) الآية . فيقول عبد الصمد ويرفع رأسه (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم) الآية .

ومن شعره ما رواه المبرد قال : رأيت أحمد بعرفات مُضْحِياً للشمس لا يستظل . فقلت ما هذا يا أبا الفضل ؟ فقال :

ضحيتُ لكيما أستظلّ بظله
إذا الظلّ أضحى في القيامة قالصا
فيا أسفي إن كان سعيك باطلاً
ويا حزنا إن كان أجرك ناقصا

قال في المدارك : وأنشدَ له الحضرمي :

أخو دنَف رمتْه فأقصدتْه ... سهامٌ من لحاظك لا تطيش
قواتلُ لا قِداح سوى احورار ... بهن ولا سوى اللحظاتِ ريش
أصبنَ سواد مهجته فأضحى ... سقيماً لا يموت ولا يعيش
كئيب إن تحمَّلَ عنه جيش ... من البلوى ألمَّ به جيوش

وهذه الأبيات في رقتها وجزالتها لا تصدر إلا عن طبع مهذب وشعور عميق بالجمال ، وهو الجمال البشري المرموق المعشوق ، لا ما يرمز اليه الصوفية من جمال الحضرة العلية ، فإن هذه النزعة لم تكن ظهرت في ذلك الوقت . وقد تستغرب من صاحب البيتين آنفي الذكر ، ولكن الأمر هو على ما يعهد في أصحاب النفوس ذات الحساسية البليغة ، من شدة التأثر بالمواقف العاطفية والمشاهد الوجدانية فشاعرنا الفقيه لما كان بعرفات متعرضاً لنفحاتها مستغرقاً في روحانية مشاعرها لم يملك إلا أن يكون كما رآه المبرد ويقول ما قاله من ذلك الشعر المطبوع بطابع الزهد والتقى . وفقيهنا الشاعر امام العيون

التي في طرْفهـــا حوَر لم يستطع أن يُخْفي انفعاله بسحرها ووقوعَه في أسرها ، فقال تلك الأبيات الرائقة المُعْجبة التي لا تُؤتَى من ضعف في الشكل ولا في المضمون . انها طبيعة واحدة فما يصدر عنها وان اختلف في صورته لا يختلف في مادته ، والشعر ليس خاصاً بالكاس والطاس وما كان من ذلك بسبيل ، فرب أبيات في المطالب العالية للنفس أقرب إلى الشاعرية من كثير من الشعر الذي يقوله أصحابه في الهوى والشباب مما يظن أنه مادة الشعر الأولى . على أنه لا بد من تدبير النفس بين نزعاتها المختلفة والتنقل بها من حال إلى حال :

ولله مني جانب لا أضيعه   ولِلّهو مني والبطالة جانب

وقال المبرد : ذكر الدولابي في كتاب نزهة الأسرار أنّ ابن المعذل قال له أهله حين ورد القاضي يحيى بن أكثم البصرة : لو أتيت يحيى فسألته ، وقد أصابهم ضر ، فلم يجبهم . ثم قال هذين البيتين :

تُكلّفني إذلالَ نفسي لعزهـــا
وهان عليها أن أذِلّ وتُكرَما
تقول سل المعروف يحيى بنَ أكْثم
فقلتُ سليه ربَّ يحيى بنِ أكثما

هكذا جعل القاضي عياض في المدارك البيتين ؛ والحكاية ؛

لأحمد بن المعذل وجعلهما ابن خلكان في الوفيات لأخيه عبد الصمد وهما بحال صاحبنا أحمد أشبه .

القاضي عبد الوهاب

ومنهم القاضي عبد الوهاب بن علي بن نصر ، من أعلام مذهب مالك من أهل بغداد ، ونبَتْ به على عادة البلاد بذوي فضلها كما قال ابن بسام في الذخيرة فغادرها إلى مصر وشيّعه جمعٌ من أهلها وطلبة العلم فيها متأسفين لرحيله عنها فقال لهم لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين في كل يوم ما عدلت عنكم فأطرقوا ولم يحيروا جواباً . وفي ذلك يقول :

سلام على بغداد في كل موطن ... وحُقّ لهامني سلام مُضاعَف

فوالله ما فارقتها عن قلىً لها ... واني بِشَطّيْ جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت عليّ بأسرها ... ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكانت كخِلٍ كنت أرجو دنوه ... وأخلاقُه تنأى به وتخالف

وقال فيها لمّا ضاقت به الحال :

بغداد دار لأهــل المــال طيبــة
وللمفاليس دار الضنْك والضّيق

ظلَلتُ حيرانَ أمشي في أزقَّتِها
كأنّني مُصحَف في بيتِ زنديق

قالوا واجتاز أثناء رحيله إلى مصر بمَعَرَّة النعمان وبها يومئذ أبو العلاء المعرّي فأضافه وقال فيه من أبيات :

والمالكيّ ابنُ نصرٍ زار في سفر
بلادَنـــا فحمِدنا النأيَ والسفرا
إذا تفقه أحيـــا مـــالكاً جـدَلاً
وينشُر المَلِك الضلّيل ان شعرا

والملك الضليل هو امرؤ القيس . وكفى بها شهادة لشاعرية هذا الفقيه من أبي العلاء فيلسوف الشعراء . وطاب له المقام بمصر ورغد عيشه ولكنه ما لبث أن اعتلّ ومات . وفي مرض موته قال الكلمة المأثورة : « لما عِشْنا مُتْنا » وكانت وفاته عام ٤٢٢ .

ومن رقيق شعره في الغزل :

ونائمةٍ قبَّلْتُهـــا فتنبهت
فقالت تعالوا واطلبوا اللص بالحد
فقـــلت لهـــا اني فديتكِ غاصب
ومـــا حكموا في غاصبٍ بسوى الرد
خُذِيهـــا وكُفّي عن أثيم ظُلامةً
وإن أنْتِ لم تَرضَيْ فألْفاً على العد

فقالت قصاص يشهد العقل انه
على كَبِد الجاني ألذّ من الشّهد

فباتت يميني وهي هِمْيانُ خصْرها
وباتَتْ يساري وهي واسطةُ العقد

فقالت ألم نُخبَر بأنك زاهد
فقلتُ بلى . ما زلتُ أزهدُ في الزهد

ونشير إلى استغلال القاضي عبد الوهاب لمعلوماته الفقهية وتضمينها في هذه القطعة الشعرية بما زادها طرافة ولم يبعد بها عن صناعة الشعر ، كما ألمعنا لذلك فيما مضى ، ونظّرنا له بأمثلة من شعر المتنبي وغيره . والمسألة هنا تتعلق بالغصب وحكمه أن الغاصب إذا ردّ الشيء بحاله فلا تبِعَة عليه . وذلك ما تضمنته الأبيات المذكورة مع غاية التفنّن .

وللقاضي عبد الوهاب أبيات في نقد المجتمع لم تزل على لسان كل واعظ ومصلح اجتماعي وهي قوله :

متى تصِلُ العِطاشُ إلى ارتواء
إذا استقت البحارُ من الرّكايا

ومَن يَثْني الأصاغر عن مُراد
وقد جلس الأكابر في الزوايا

وان ترفّعَ الوُضعاء يومـاً
على الرّفَعـاء من إحدى البلايـا

إذا استوت الأسافـل والأعالي
فقـد طابت منادمـةُ المنـايـا

منصور الفقيه

ومنهم منصور بن اسمعيل عُرِف بالفقيه وهو من فقهاء الشافعية ، من شعره في مدح علم الفقه :

عـاب التفقّه قوم لا عقول لهم
وما عليه إذا عابوه مـن ضرر

ما ضرَّ شمس الضحى في الأفق طالعة
أن لا يرى ضوءَها من ليس ذا بصر

قال ابن خلكان : ومن هنا أخذ أبو العلاء المعري قولَه في قصيدته المشهورة :

والنجمُ تستصغر الأبصارُ رؤيته
والذّنْبُ للعين لا للنجم في الصغر

فهذا فقيه شاعر يقتبس منه أحد فحول الشعراء ولا يقول

في شعره مزرياً عليه أنه شعر فقيه .

وكان منصور ينحو في شعره منحى أخلاقياً وهو القائل في ذمِّ الكذب :

لي حيلــةٌ فيمن ينَـــ ـمّ وليس في الكذاب حيله
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتي فيه قليله

ومن شعره في تزييف ادعاءات المنجّمين :

ليس للنجم إلى ضر ولا نفْــع سبيل
إنمــا النجم عــلى الأو قات والسّمْت دليل

وله أيضاً :

إذا رأيتَ امرّأً في حالِ عِشْرَته
بادِي الصداقة مــا في وده دَخَل
فــلا تَمنَّ له حــالاً يُسرّ بِه
فإنه بانتقــال الحال ينتقِــــل

وكان منصور كفيفاً . وله تآليف في الفقه . وتوفي سنة ٣٠٦ بمصر .

الخطّابي

أبو سليمان حمد بن محمد بن ابراهيم بن الخطاب البُسْتي عرف بالنسبة إلى جده الفقيه المحدث الأديب صاحب التصانيف البديعة منها غريب الحديث ومعالم السنن وكان شافعي المذهب ، من شعره هذان البيتان المشهوران :

ومـــا غُربة الانسان في شُقّة النّوى
ولكنهـــا والله في عـــدَم الشكل

وأني غريبٌ بيْن بُسْتٍ وأهلهـــا
وإن كانَ فيها أسرتي وبها أهلي

وله أيضاً :

فسامـــح ولا تستوف حقّك كله
وابْــق فلم يستقص قط كريم

ولا تغْلُ في شيءٍ من الأمرِ واقْتصِدْ
كِلا طرَفَي قصـدِ الامور ذميم

وليس أدلّ على شاعرية المرء من أن يسير كلامه بين الناس مسير المثَل ويتقبلوه ويستشهدوا به في مثل المناسبة الّتي قيل فيها كالبيت الأول والثاني من هذين النموذجين من شعره ،

وكلاهُما مما ينبيء عن عارضة قوية ولا يستطيع ناقد أن يلمزهما بعيب فني لأن قائلهما فقيه .

وله كذلك من هذا القبيل وارتكب فيه الجناس :

مـــا دُمتَ حياً فدَارِ الناس كلّهمُ
فإنمـــا أنت في دار المُــــــداراة
مَن يَدْرِ دارى ومن لم يدر سوف يُرَى
عمّـــا قليـــل نديمـــاً للندامات

توفي الخطابي ببَلدِهِ بست سنة ٣٨٦ .

المُعافى بن زكرياء

كان قاضياً ببغداد وكان على مذهب الامام ابن جرير الطبري ، ولذلك يُقال له الجَريري ، روى عن جماعة من الأئمة منهم ، أبو القاسم البَغَوي وعنه القاضي أبو الطيب الطبري وغيره ، وكان مشاركاً في العلوم حتّى كان أبو محمد الباجي يقول إذا حضر أبو الفرج وهي كنيتُه فقد حضرت العلومُ كلها . وكان ثقة مأموناً في روايته وله شعر حسن منه هذه الأبيات السائرة في ذَمّ الحسد :

ألا قُل لمَن ظل لي حاسداً أتدري على من أسأت الأدب؟

أسأتَ على اللهِ في حكمه لأنك لم ترضَ لي ما وهب
فجازاك عني بأن زادني وسدَّ عليك وُجوهَ الطلب

وله كتاب الجليس الأنيس وتوفي بالنهروان سنة ٣٩٠ .

محمد بن داود الظاهري

يكنى أبا بكر ، وهو ولد الامام صاحب مذهب الظاهر . وكان فقيهاً عالماً متمكناً من مادته مناظراً عن مذهب أبيه ، صنّف في الانتصار له وفي أبواب من الفقه والأحكام تصانيف جليلة . ولما توفي والده وجلس في حلقته استصغره الناس فسأله أحدهم عن حد السكر ومتى يكون الإنسان سكران ، فقال إذا عَزَبَتْ عنه الهموم وباح بسره المكتوم فاستُحسِن ذلك منه وعرف موضعه من العلم .

وصنف في عنفوان شبابه كتابه الذي سماه الزّهرَة وهو مجموع أدب أتى فيه بكل غريبة ونادرة وشعر رائق . وقسمه إلى مائة باب ضمّن كل باب مائة بيت ، يذكر في خمسين منها جهات الهوى وأحكامه وتصاريفه وأحواله ، ويذكر في الخمسين الثانية أفانين الشعر الباقية . فهو من أعظم الكتب التي أُلّفت في الحب بالعربية وأقدمها ، ويحتوي بهذا الاعتبار على ١٠,٠٠٠ بيت . وقد نشر منه النصف الأول باعتناء المستشرق الدكتور نيكل منذ أكثر من ثلاثين سنة . ولعله

هو الذي فتح الباب لابن حزم في تأليفه لكتاب طوق الحمامة في الموضوع ، لا سيما وابن حزم كما هو معلوم على مذهب داود الظاهري والد مترجمنا ومن أكبر أئمته ..

ومن شعر محمد بن داود في الحب والغزل :

أنزّه في روض المحـــاسن مقلتي
وأمنع نفسي أن تنـــال المحرما

وأحمل من ثقل الهوى ما لوّ انه
يُصبّ على الصخر الأصم تهدمـــا

وينطـــق طرفي عن مترجم خاطري
فلولا اختـــلاسي رده لتكلمـــا

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم
فما أن أرى حبـــاً صحيحاً مسلما

وحكى ابن أبي الدنيا أنه حضر مجلس محمد بن داود فجاءه رجل فوقف عليه ورفع له رقعة فأخذها وتأملها طويلاً وظن تلامذته أنها مسألة ثم قلبها وكتب على ظهرها وردها إلى صاحبها . فنظرنا فإذا الرجل علي بن العباس المعروف بابن الرّومي الشاعر المشهور وإذا في الرقعة :

يا ابْنَ داود يا فقيهَ العراق ... أفْتِنا في قواتل الأحداق
هل عليهن في الجراح قصاص ... أم مباح لهـــا دَمُ العشاق

وإذا الجواب قوله :

كيف يُفتيكم قتيل صريع   بسهام الفراق والاشـــتياق
وقتيل التلاق أحسن حالا   عند داود من قتيل الفراق

فالفقيه الذي يُساجِلُ ابن الرومي الشاعر المكثر المبدع لا يمكن أن يُقدَح في شاعريته أو يُنازَع في صنعة الشعر . بل ان الفقيه الذي كان أول من وضع مؤلفاً شعرياً خاصاً بالحب وشؤونه حري أن يكون حجة على كل من ينكر الشعر والأدب والفن على الفقهاء .

ونخلص لذكر فقهاء المغرب والأندلس ، ونبدأ للمناسبة الآنفة الذكر بأشهرهم اسماً وأكبرهم علماً وهو أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي ، امام أهل الظاهر بعد مؤسس هذا المذهب داود الظاهري المشهور .

ابن حزم

قال صاعد الأندلسي في حقه : « كان أبو محمد أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الاسلام ، وأوسعهم معرفة ، مع توسعه في علم اللسان ، ووفور حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار ، وأخبرني ابنه أبو رافع الفضل بن علي أنّه اجتمع عنده بخط أبيه من تاليفه نحو أربعمائة مجلد ، تشتمل

على قريب من ثمانين ألف ورقة»[1] ومن أشهر كتبه المُحلّى أبان فيه عن علم غزير وتعمق في فهم أحكام الشرع وأدلتها من الكتاب والسنة ، وهو مطبوع في أحد عشر جزءاً . وله أيضاً كتاب الإحكام في أصول الأحكام نفيس جداً . وهو مطبوع أيضاً . ومن مؤلفاته المشهورة في تاريخ الأديان والعقائد كتاب الفِصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل وهو معتمد في هذا الباب .

أما مقامه في الأدب والشعر ، وهو موضوع بحثنا هذا ، فقد قال فيه الحُمَيْدي صاحب جِذْوة المُقتَبِس : « وكان له في الآداب والشعر نفَس واسع وباع طويل ، وما رأيت من يقول الشعر على البديهة أسرع منه ، وشعره كثير . وقد جمعناه على حروف المعجم » ومما أنشد له من شعره :

لئن أصبحت مرتحلا بشخصي	فروحي عندكم أبداً مقيم
ولكنْ للعيان لطيفُ معنى	له سأل المعانيةَ الكليم

ولا يخفى ما في هذين البيتين من دعم الشعور العاطفي بالمعنى الديني ، المستمد من قصة موسى عليه السلام وقوله في مناجاة الحق سبحانه وتعالى : (رب أرني أنظر إليك) والتعليل لهذا الطلب الجريء بما لا يتنافى مع قوة الايمان ولا يخامره أدنى شك ، ولذلك كان لهذين البيتين عند العلماء

(١) الصلة لابن بشكوال ص ٤٠٦ طبع مدريد . وفيه بعض مخالفة لما في طبقات الامم لصاعد

والمتصوفة قيمة كبيرة ، وصدى لا يزال يتردد في الكتب والمجالس كلما سنحت المناسبة للخوض في هذا الموضوع . ولا تقِلّ قيمتُهما عند الأدباء عن قيمتهما عند العلماء، لأنهما من حيث السبك والصياغة لا غبار عليهما ، وأما المعنى فإنه فريد لا مثيل له ، غاية الأمر أن أنظار العلماء والأدباء تلاقت عندهما لما تضمناه من تعبير بارع عن مقصد كل من الطرفين .

ونظيرهما في استِيحاء النصوص الدينية قولُ أبي تمام في سينيّته المشهورة في مدح المعتصم :

لا تُنكروا ضَرْبي له مَنْ دُونَه
مَثَلاً شَرُوداً في الندى والباس
فالله قد ضرب الأقلَّ لنوره
مَثَلاً مِنَ المِشكاةِ والنّبِراس

ومع تواردِ الفقيه والشاعر الكبيرين على الاستقاء من معين الدين في أبياتهما هذه ، مما يؤكد أن ذلك لا يتعارض وأصالة الشاعرية ، فإن الانصاف يقتضينا أن نقول أن بيتي ابن حزم أرقّ معنى وألطفُ مَساقاً ، وهما فوق ذلك أكثر سيْرورة من بيتي أبي تمام .

ومن شعر ابن حزم قوله وضمنه الاشارة إلى مذهبه :

وذي عـــذَل فيمن سباني حسنُه
يطيل مَلامي في الهوى ويقول

أمِن أجل وجــه لاح لم تر غيره
ولم تدر كيف الجسمُ أنتَ عليــل

فقلت له أسرفْتَ في اللوم فاتّئِدْ
فعنديَ ردّ لو أشـــاء طويـــل

ألم تر أني ظاهريّ وأنـــني
على مـــا بدا حتى يقوم دليـــل

وما أحسن هذا القول ، وألطف الاشارة هنا إلى المذهب ، لا سيما إذا علمنا أن للأبيات حكاية ذكرها ابن حزم نفسه في كتابه طوق الحمامة ، وأن المُحاوَرة فيها كانت مع الحافظ أبي عُمَر بن عبد البَرِّ وهو من أئمة مذهب مالك فَمِنَ البراعةِ الاحتجاجُ في هذا المقام الأدبي بالمذهب الفقهي الذي يأخذ به الشاعر ، والمُخالِفُ كان من غزارة العلم وسَعَة الأفُق بحيث يتقبل هذا الاحتجاج ويُمِرّهُ على أنه من اللطائف الأدبية التي لا مُماحكَةَ فيها . وهكذا كان القوم على إمامتهم في العلم والدّين يتعاطوْن كؤوس الأدب ممزوجة بالنكت البارعة ، والتلميحات اللطيفة ولا يرون في ذلك حرجاً ، ولا يستطيع أحد أن يلزمهم بسوء .

وألف ابنُ حزم كتاب طوق الحمامة في الحب وصفاته ، ومعانيه وفلسفته ، والمحبين وما يعرض لهم وأحوالهم وأخبارهم وهو وإن قال ان تأليفه له كان باقتراح أحد أصدقائه ، فإننا نرى أنه ربما تشجع على ذلك بما علم من تأليف وَلدِ إمامه لكتاب الزهرة في الموضوع على ما مرّ ذكره . وأياً كان الأمر ، فإن طوق الحمامة يختلف عن كتاب الزهرة اختلافاً كبيراً . انه مليء بذكر تجارب ابن حزم نفسه في ميادين الحب والغرام ، ومليء كذلك بأشعار ابن حَزْم التي نظمها في الموضوع ، بل ليس فيه شعر لغيره ، وذلك ما جعلَه تحفةً أدبيّة نادرة المثال ، وقصة غرامية متسلسلة الأحداث والوقائع ، تغري قارئها بالانكباب عليها ، خصوصاً وهو يعلم أن بطلَها علَمٌ من أعلام الفقه والدين وعبقريّ من عباقرة الفكر والفلسفة ، وكان في وقت ما وزيراً وهو ابن وزير ، فقد توفرت كل الأسباب لجعل هذا الكتاب قطعة فنية خالدة . وذلك من أعظم الأدلّة على أنّ للفقهاء جَوْلات موفقة في ميادين الأدب والشعر فاتت كثيراً من الشعراء والأدباء .

ومما جاء في طوق الحمامة من شعره في الحب الطاهر قوله :

يلومُ رجالٌ فيكِ لم يعرفوا الهوى
وسِيّان عندي فيك لاحٍ وساكتُ
يقولون جانبت التصاوُنَ جملة
وأنت عليهم بالشريعة قانِتُ

فقلت لهم هذا الرياءُ بعينه
صُراحاً وزِيّ للمرائين ماقِت

متى جاء تحريم الهوى عن محمد
وهل منعُه في محكم الذكر ثابت

إذا لم أُواقِعْ مَحْرماً أتّقي به
مجيئِيَ يومَ البعث والوجهُ باهِتُ

فلستُ أبالي في الهوى قولَ لائم
سواءٌ لعَمْري جاهر أو مُخافِت

وهل يلزم الانسانَ إلا اختيارُه
وهل بخبايا اللفظ يُؤخذ صامِت

وهو احتجاج قوي في الشعر كاحتجاجه في مسائل الفقه وخلاف الأئمة ، مما يدل على عارضته القوية وملكته الراسخة ومنه قوله في مليحة شقراء :

يَعيبونها عندي بِشُقْرَةَ شَعْرِها
فقلت لهم هـذا الذي زانها عندي

يعيبون لونَ النّور والتّبر ضَلّةً
لرأي جهول في الغَوايـة ممتدّ

وهل عابَ لون النرجس الغضّ عائب
ولون النجوم الزاهراتِ على البُعدِ

وأبعدُ خلق الله من كل حكمـــة
مفضل جرم فاحِـــم اللون مُسْوَدّ

به وُصِفَتْ ألوانُ أهـــل جهنـم
ولِبْسَةُ باكٍ مُثْكلٍ الأهل مُحْتَدّ

ومُذْ لاحت الرايـــاتُ سوداً تيقنت
نفوسُ الورى أن لا سبيل إلى الرشد

فهذه الأبيات تنبىء عن ذوق مدني مهذب ، كما تنبىء عن شاعرية بليغة لا يرقى إليها نقد من جهة المعنى ولا من جهة اللفظ . وما أملح قوله : « فقلت لهم هذا الذي زانها عندي » والغريب أن ابن حزم يذكر في الفصل الذي أورد فيه هذه الأبيات أن ذلك أي حبه للشقرة كان طبيعة له وميْلاً غريزِياً فيه ، فهو يعبر عن شعور صادق ، وحب راسخ وليس كلامه صنعة وتفنّناً في القول كما قد يلوح . وأغرب من هذا هو البيت الأخير في القطعة ، أتُراه نزْعة سياسية مَرْوانية لم يغفل ابن حزم الافصاح عنها وقد واتته المناسبة في هذه الأبيات العاطفية ؟

لعلنا قد مددنا النفَس أكثر من اللازم في الحديث عن أدب ابن حزم ، ولكنه يستحق ذلك ، وما يمنعنا من الاطالة إلا ضيق المقام ومراعاة المناسبة لما تحدثنا به عن غيره . وكانت وفاته رحمه الله سنة ٤٥٦ .

أبو الوليد الباجي

هو القاضي أبو الوليد سليمان بن خَلَف الباجي نسبة إلى باجَةِ الأندلس ، لا باجةِ افريقية . كان قَرِيعَ ابن حزم في الفقه والعلم ، وكان على مذهب مالك ، وهو الذي تصدى لابن حزم بعدما قصر فقهاء الأندلس عن مجادلته فناظره ونقض كثيراً من حججه . وقال عنه القاضي أبو علي بن سُكَّرة : « ما رأيت مثله في سَمْته وهيبته وتوقير مجلسه وهو أحد أئمة المسلمين وناهيك بأنه روى عنه حافظا المغرب والمشرق أبو عمر بن عبد البر وأبو بكر الخطيب . ألف أبو الوليد كتاب الاستيفاء في شرح الموطأ ، كتاب حفيل كثير العلم لا يدرك ما فيه إلا من بلغ درجة مؤلفه في العلم قاله ابن فرحون في الديباج . ثم اختصره في كتاب سماه المُنتقَى ، وهو مطبوع في سبعة مجلدات . وله غيرهما من الكتب القيمة النافعة . ومن شعره :

أسرّوا على الليل البهيم سُراهُم
فنَمَّتْ عليهم في الشمال شمائِلُ

متى نزلوا ثاوِينَ بالخَيْف من مِنى
بدت للهوى بالمأزِمَيْن مَخايِلُ

فلله ما ضمّت مِنى وشعابُها
وما ضَمِنت تلك الرّبا والمنازلُ

ولمّـــا التَقَيْنا للجِمــارِ وأبرِزتْ
أكفٌ لتقبيـــل الحصى وأنامِـــلُ

أشارت إليـــنا بالغرام محـــاجر
وباحت به منا جُسوم نواحل

وهي أبيات ذات نفَس أعرابيّ تعبر عن حُبّ دفين ، وان دارت الناس عنه بالحديث عن الحجاز والمشاعر المشهودة فيه . وفيها مع ذلك صنعة بديعية لطيفة إلا أنها تكاد تكون من وحي الطبع لا تَعَمّلَ فيها ، فاجتمع لها بذلك حسن السبك وبلاغة المعنى ، وماذا يُطلَب من الشاعر الموهوب أكثر من ذلك ؟

ومما اشتهر من شعر الباجي قوله :

مضى زمنُ المكارم والكرام سقاه الله من صَوْب الغمام
وكان البِرّ فِعلاً دون نُطق فصار اليوم نُطقاً بالكلام

وذيله بعضُ الفقهاء أيضاً لمّا استشرى الفساد بقوله :

وزال النطقُ حتى لستَ تلْقَى فتىً يسخُو بردٍ للسلام

ثم ذيله فقيه آخر وقد طمّ الوادي على القَرِيِّ فقال :

وزاد الأمرُ حتى ليس الا سَخِيٌّ بالاذى او بالمـلام

ولا يجد الناقد الأدبي ما يأخذ على هذه الأبيات ، وكلها لفقهاء شعراء ، بل انه لو أنصف لجعلها في مستوى القمة من الصناعة الشعرية وخصوصاً بيتي صاحبنا أبي الوليد الباجي ، ولذلك جرت على ألسنة العلماء والأدباء معاً ، وكان مشائخنا رحمهم الله كثيراً ما يرددونها في المقامات التي تستدعي إنشاد مثلها .

وللباجي أيضاً هذان البيتان المشتهران في الزهد والحكمة :

اذا كنتُ أعلم علماً يقينا بأن جميع حياتي كساعه
فلِمْ لا أكونُ ضنيناً بها وأصْرِفُها في صلاح وطاعه

أبو بكر بن العربي

هو الامام القاضي أبو بكر محمد بن عبدالله بن العربي المعافري الاشبيلي . حلاه ابن بَشْكَوال في كتابه الصلة بقوله : « الحافظ المستبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفاظها » أخذ ببلده ورحل إلى المشرق فلقي أبا حامد الغزالي وأبا بكر الشاشي وغيرهما وعاد بعلم غزير . وكان فصيحاً أديباً شاعراً كثير الخبر مليح المجلس . وله تآليف كثيرة منها أحكام القرآن في مجلدين مطبوع ، وهو عظيم الفائدة ومنها عارضةُ الأحْوَذي في شرح صحيح الترمذي مطبوع أيضاً وكتاب العواصم من القواصم مطبوع وهو دليل على بُعد

غوره وتفننه في علوم الفقه والكلام والتصوف . ومن شعره المشهور قوله وقد ركب مع أحد أمراء الملثمين . وكان الأمير صغيراً فهزّ عليه رمحاً كان في يده مُداعباً له :

يهزّ عليّ الرمح ظبي مهفهف لَعُوب بألباب البرية عابثُ
ولو كان رمحاً واحداً لاتّقيته ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

وهما بيتان سائران يجريان كثيراً على ألسنة الأدباء في مجال الاعتذار وعند غلبة الحوادث . قال المقري في نفح الطيب : « وقد اختلف حذاق الأدباء في قوله : (ولكنه رمح وثان وثالث) ما هو الثاني والثالث ؟ فقيل القد واللحظ ، وقيل غير ذلك» .

وله وهو معنى بديع :

أتتْني تؤنبني بالبكاء فأهلاً بها وبتأنيبها
تقول وفي نفسها حسْرَةٌ أتبكي بعَينٍ تراني بها
فقلت إذا استحسنت غيركم أمرتُ جفوني بتَعْذيبها

قال في النفح : ومن شعر ابن العربي ممـا نسبه إليه الشيخ أبو حيان قوله :

ليتَ شعري هـل دروا أيّ قـلب ملكـوا
وفؤادي لـو درَى أيّ شِعْب سلكـوا
أتراهـم سلِمُوا أم تراهـم هلكـوا »

وهي أبيات ذاتُ نفَس صوفي أكسبها رقة وطلاوة ، ولا يستطيع ناقد أن يلمزها بأنها شعر فقيه ، وهو يعني أنها ليست بذاك من حيث الصنعة البيانية .

توفي ابن العربي رحمه الله سنة ٥٤٣ وقبره بفاس معروف .

القاضي عياض

أبو الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصُبي السَبْتي ، امام وقته في الفقه والحديث وعلومهما والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم . وصفه ابن الابار فقال : « كان جمال العصر ومفخر الأفق وينبوع المعرفة ومعدن الافادة ، وإذا عُدّت رجالات المغرب فضلاً عن الأندلس حسب فيهم صدراً » وقد ألف فيه العلامة المقري كتابه أزهار الرياض في أربعة مجلدات وهو معروف ، طبع منه ثلاثة مجلدات وللقاضي عياض تصانيف سارت بها الركبان منها كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى أبدع فيه كل الإبداع واكتسب شهرة في العالم الاسلامي كاد يصير بها من الكتب المقدسة نظراً لشرف موضوعه . ومنها كتاب مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطإ والبخاري ومسلم وضبط الألفاظ والتنبيه على الأوهام والتصحيفات وضبْط أسماء الرجال وهو كتاب فريدٌ لا نظير له . ومنها كتاب ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب الامام مالك

ويعرف عادة بالمدارك ، وغير هذه من مؤلفاته المحررة العظيمة الفائدة في الفقه والحديث وفنونهما وفي التاريخ والأدب . وكانت له ملكة قوية في الانشاء وقريحة سيالة في الشعر ومن قوله في خامات زرْع بينها شقائقُ النّعمان هبّت عليها رياح :

انظُر إلى الزرْع وخاماتهِ تحكي وقد ماستْ أمامَ الرياح
كتيبةً خضراءَ مهزومــة شقائقُ النعمان فيها جِراحْ

وهو بديع . والخامةُ القَصبةُ الرطبة من الزرع .
وله في وداع قرطبة :

أقولُ وقــد جدّ ارْتِحالي وغرّدت
حُداتِي وزُمّت للفراق ركائبي
وقد غمِصتْ من كثرة الدمع مُقلتي
وصارَت هواءً من فؤادي ترائبي
ولم تبق إلا وقفــة يستحثّها
وداعِيَ للأحباب لا للحبائب
رعى اللهُ جيراناً بقُرطبة العُلا
وسقّى رُباهــا بالعِهاد السواكب
وحيّا زماناً بينهم قد ألفتُه
طليقَ المحيا مُستَهلان الجوانب

أإخوانَنا بالله فيهـا تذكّـروا
معاهِدَ جارٍ أو مودّة صاحب

غـدوتُ بهم من برّهم واحتفائهم
كأني في أهـلي وبـين أقـاربي

ولست بحاجة إلى التنبيه على ما في هذه الأبيات من دقة الوصف لحركة السفر ، وشدة اللوعة لفراق الأحبّة ، وهذا الاستدراك الجميل والحَذِر في قوله (للاحباب لا للحبائب) خشيةَ أنْ يُفهم ما لا يليق بكرامته العلمية ، وهو في دار الغُربة ، مما يدل أعظم الدلالة على حسن تصرف الشاعر وتملّكه لناصية التعبير عمّا في ضميره وأدائه للمعنى المراد بكل سهولة وبكل براعةٍ أيضاً . وتلك هي الغاية الّتي يتطلع إليها فحول الشعراء من غير أصحابنا الفقهاء . وقد توفي القاضي عياض سنة ٥٤٤ ودفن بمراكش وقبره بها معروف .

فهؤلاء أربعة فقهاء من المغرب والأندلس كلهم قالوا الشعر الجيد الذي لا يقصر عن شعر أي شاعر مُجيد غير فَقيه سواء في الشكل أو المضمونِ ، وإذا أضفنا إليهم أبا الفضل بن النّحْوي وهو الذي بُنيَ هذا البحث على شعره ، وقد قدّمنا نماذج منه ، كانوا خمسة . ونحن انما اقتصرنا على هذا العدد القليل رغبةً في الاختصارِ ومُناسبَةِ العدد الذي ذكرناه ، من فقهاء المشرق الشعراء ، وإلاّ فهُمْ أكثرُ من

أن يُحصيَهم بحث مُقتضَب مثل هذا .

طبقة أُخرى من العلماء

قدّمنا في طالعة هذا البحث ما يُفيد أنّ العلماء كلهم سواء لدى النقّاد في هذا الشأن . وأن هؤلاء لا يَخصّون الفقهاء بضُعف مَلَكة الشعر ، بل يُعمّمون حكمهم على العلماء من أي طبقة كانوا ، نُحاةً أو أطباءَ أو فلاسفةً أو غيرهم ، وإنما يُعبّرون بالفقهاء تغليباً لجانب الفقه على غيره من العلوم ، إذ كان أكثر العلماء منَ المُشاركين في علم الفقه ، وكانت صفةُ الفقيه تُطلَق على العالِم من أي صنف كان ، وفي المغرب والأندلس كانت تُعْتَبَرُ صفةَ تشريف ، فتطلق على كبار رجال الدولة من وُزراء وحُكّام وغيرِهم .. ولهذا فنحن نرى من المناسب قبل أن نُلِمّ بموضوعات أدب الفقهاء ، ذِكْرَ طبقة أُخرى من العلماء غيرِ الفقهاء الذين قالوا الشعر وأجادوا فيه ، لأن من ذكرناهم لحد الآن إنما يمثلون الفقهاء الأقحاح المختصين بالدراسات الفقهية والعلوم الاسلامية في دائرتها الواسعة .

ابنُ دُرَيْد

فمن علماء العربيّة العالم اللغوي الشهير أبو بكر بن دُرَيْد صاحبُ كتاب الجمهرة في اللغة ، وكتاب الاشتقاق ، وكتاب

الملاحن وغيرها . قال الانباري في نزهة الألبّاء : « كان من أكابر علماء العربية مقدماً في اللغة وأنساب العرب وأشعارهم . وأخذ عنه أبو سعيد السيرافي وأبو عبدالله المرزباني . وكان شاعراً كثير الشعر فمن ذلك المقصورة المشهورة . ومنه أيضاً القصيدة المشهورة التي جمع فيها بين المقصور والممدود إلى غير ذلك . وقال محمد بن رزق بن علي الأسدي : كان يقال ان أبا بكر بن دريد أعلمُ الشعراء وأشعرُ العلماء » .

أما مقصورته فهي أشهر من نار على علَم ، وقد أبان فيها عن تفننه ومقدرته الشعرية وضمّنَها مِن بديع الحِكَمِ والأمثال ما جعلها أثراً أدبياً فريداً في اللغة العربية بحيث هبَّ كثير من الأدباء لمعارضتها والنسج على مِنْوالها حتى نشأ من ذلك باب في الأدب العربي يمكن أن نسميه أدبَ المقصورة . ويقال انه أحاط فيها بأكثر المقصور ، فهي إلى أغراضها الأدبية لها فائدة لغوية كبيرة . وأولها :

يا ظَبْيَةً أشْبَهَ شيءٍ بالمَهـا
ترعَى الخُزامَى بين أشجار النّقا

إمَّـا ترَيْ رأسيَ حاكى لونُه
طُرةَ صبح تحـت أذيال الدّجَى

واشْتَعَـل المُبيَضّ في مُسْوَدِّه
مثـلَ اشتعال النار في جزْل الغضا

فكان كالليل البهيم حلّ في
أرجائه ضوءُ صباح فانجلى

وغاضَ ماءَ شِرّتي دهرٌ رمَى
خواطرَ القلبِ بتَبْريحِ الجَوى

وآضَ روضُ اللهو يبْساً ذاوِياً
من بَعْد ما قد كان مجّاجَ الثّرى

وضرّم النأيُ المُشتَ جذوةً
ما تأتَلِي تسفَعُ أثناءَ الحشا

واتخذ التَسْهيدُ عيني مألفاً
لمّا جفا أجفانَها طيفُ الكَرى

فكلّ ما لاقيتُه مغتفر
في جنْب ما أسْأرَه شحْطُ النّوى

ومن حِكَمها :

مَن ظلَم الناس تحامَوْا ظُلْمَه
وعزّ عنهم جانباه واحتمى

وهم لمن لانَ لهم جانبُه
أظلمُ من حيّات انباث الشفا

عَبيد ذي المال وإن لم يطمَعوا
من غَمْرة في جَرعة تشفي الصّدى

وهُم لمن أملقَ أعداءٌ وان
شاركهم فيما أفــاد وحَوَى

عاجمتُ أيامي وما الغِرّ كمَــن
تأزر الدهر عليه وارتــدى

لا يرفَع اللبّ بلا جَدّ ولا
يحُطّك الجهل إذا الجدّ علا

من لم يَعِظْهُ الدهرُ لم ينفعْهُ مــا
راحَ بــه الواعظُ يوماً أو غــدَا

مَن قاس مــا لم يره بمــا يَرى
أراهُ مــا يدنُو إليه ما نــأى

مَن ملَّك الحِرصَ القيادَ لم يزل
يكرَعُ في مــاء من الــذل صَرى

مَن لم يقف عنــد انتهــاء قدره
تقاصرت عنــه فَسيحاتُ الخُطا

مَن نــاط بالعُجْب عُرى أخلاقه
نيطتْ عُرى المَقْت إلى تلك العُرى

والناسُ ألفٌ منهــم كواحــد
وواحد كالألف إن أمر عَــنى

وللفتى من مالــه ما قدَّمت
يداهُ قبل موته لا ما اقتنى

وإنمـــا المرءُ حديث بعـــده
فكُنْ حديثاً حسَناً لمن وعى

وقد اعتنى بهذه المقصورة خلق من المتقدمين والمتأخرين ، وشرحوها وتكلموا على ألفاظها . قال ابن خلكان : « ومن أجود شروحها وأبسطها شرح الفقيه أبي عبدالله محمد بن أحمد ابن هشام بن ابراهيم اللّخْميّ السّبْتي وكان متأخراً ، وتوفي في حدود سنة سبعين وخمسمائة . وشرحها الامام أبو عبدالله محمد بن جعفر المعروف بالقزّاز صاحب كتاب الجامع في اللغة » . وشرحها غيرهما أيضاً .

ومن شعر ابن دريد قوله في وصف الخمرة :

وحمراءَ قبل المزْج صفراء بعـده
أتتْ بين ثَوبَيْ نَرجِس وشقائق
حكَتْ وجْنَة المعشوق صِرْفاً فسلّطوا
عليها مِزاجاً فاكْتَست لونَ عاشق

ومنه في الغزل :

غرّاء لو جلت الخـــدود شُعاعها
للشمس عند طلوعهـــا لم تُشرق
غصن عـــلى دِعْص تأوّدَ فوقه
قَمَرٌ تألّق تحت ليـــل مُطبـــق

لو قيل للحسنِ احتكِمْ لم يعدُها
أو قيل خاطب غيرَها لم ينطِق

وكأننا من فَرْعِها في مغرب
وكأننا من وجهها في مشرق

تبدو فيهتِفُ للعيون ضياؤها
الويْلُ حلَّ بمُقْلة لم تُطبِق

وشعره كثير جمعه أحد فضلاء الهند في ديوان ونشره بعناية . وتوفي ابن دريد سنة ٣٢١ .

الزَّمَخْشَري

ومنهم أبو القاسم محمود بن عمر الخُوارزمي الزَّمخشري جار الله العلامة الامام في النحو واللغة والبيان والتفسير ، له التصانيف البديعة التي دلّت على رسوخ قدمه في العلم بالعربية وأسرارها ، ومنها تفسيره العظيم المسمى بالكشّاف في مجلدين ، أبرز فيه معاني القرآن وبلاغتَه بما لم يُجارِه فيه أحد ، وله كتاب المُفصَّل في النحو أشهر من أن يُعرَّف ، وكتاب أساس البلاغة في اللغة ، وكتاب الفائق في تفسير غريب الحديث ، وكتاب المقامات بديع جداً تنكب فيه أغراض أصحاب المقامات المعروفة من الشحاذة والاحتيال وسلك نهج الحكمة والموعظة الحسنة . وكان يميل إلى الاعتزال

ويشارك في الأدب بسهم وافر ، ومن شعره في العتب على الزمن :

وأخـرَني دهري وقـدّم مَعْشراً
عـلى أنهم لا يعلمُون وأعـلمُ

ومُذْ أفلَحَ الجهـالُ أيقنتُ أنني
أنا الميـمُ والأيام أفْلَحُ أعـلَمُ

الأفلح مشقُوق الشفـَة السفلى والأعلم مشقوق الشفـَة العليا ، ومَن كان كذلك لا يقدر على النطق بحرف الميم ، وقد كنّى الزمخشري بذلك عن حرْب الدهر له وتقديم من هو دونه عليه .

وله في رثاء أحد أشياخه :

وقـائلةٍ ما هـذه الدّرَرُ الـتي
تساقطُ من عينيكَ سِمْطيْن سِمْطيْن

فقلتُ لهـا الدُّرُّ الذي كان قد حشا
أبو مُضَرٍ أُذْني تَساقَط من عَيْني

وهو بديع وقد تداوله بعده غيره من الشعراء .

ومن قوله في العلم المُحيط :

العِلمُ للرحمن جلَّ جلالُه وسواه في جَهَلاتِه يتغَمْغمُ
ما للتُّراب وللعلوم وإنما يسعى ليعْلم أنه لا يَعْلَمُ

أبو حيّان الغَرْناطي

ومن النحاة أيضاً الشيخُ أثيرُ الدّين أبو حيّان محمد بن يوسف الغَرْناطي . كان اماماً في العربية لا يُضاهى مشاركاً في العلم بالحديث والتفسير ، وله اليد الطّولى في الأدب . ألّف البحر المُحيط في تفسير القرآن في ثمانية مجلدات ، ألَمّ فيه إلماماً وافياً باعراب آيات الكتاب العزيز وتفسير ألفاظه اللغوية والاستشهاد على ذلك بكلام العرب . وشرَح كتاب سيبويه وكتاب التسهيل لابن مالك،وألّف في القراءات السبع كُتُباً مفردة ، وكان يعرِفُ اللغة التّركية وألف فيها عدة كتب ، ويُعتبر هو مؤسس نَحْوِها ومُقَعِّدَه ، ولكُتبه اليوم في تُركيا قيمة علمية وقد اعتُنِيَ بها ونُشِرَتْ نشراً محققاً لظهور فائدتها واعتماد القوم عليها . كما ألف في اللغة الفارسية والحبشية وفي غير ذلك من المباحث الأدبية والتاريخية وله ديوان شعر كبير ما يزال مخطوطاً اشتمل على قصائد في موضوعات شتّى ومقطعات وموشحات بديعة النظم رقيقة المعنى .

من شعره الغزلي :

سَبَق الدمعُ بالمَسيل المطايا إذْ نَوى من أحب عني نُقْله
وأجاد السّطورَ في صفحة الخـ ـد ولم لا يُجيد وهو ابنُ مُقْله

وفيه تورية جميلة . ومنه :

ألا إن ألحاظاً بقلبي عوابثاً
أظنّ بها هَارُوت أصبح نافِثا
إذا رام ذو وجد سُلُوّاً مَنَعْنَه
وكنّ على دِين التصابي بَواعِثا
وقيّدْنَ من أضحَى عن الحب مطلقاً
وأسرعْن للبلوى بِمَن كان رائِثا

ومن نظمه المشهور :

عِدايَ لهم فضلٌ عليّ ومنةٌ
فلا أذهب الرحمن عني الأعادِيا
هُم عرّفوني زلّتي فاجتنبتُها
وهم نافَسُوني فاكتسبتُ المعالِيا

ومنه أيضاً :

يظنّ الغُمْرُ أن الكُتْبَ تهدي أخا فَهْمٍ لإدراك العلوم
وما يدري الجهولُ بأن فيها غوامِض حيّرت عقلَ الفهيم

إذا رُمتَ العلوم بغير شيخ ضَلَلْتَ على الصراط المستقيم
وتلتبِسُ الأمور عليك حتى تَصيرَ أضلَّ من تُوما الحكيم

وأخبار أبي حيان وشعرُه أكثر من هذا الذي ذكرناه . ونحن ليس قصدنا الترجمة له ولا لغيره ممن ذكرناه أو نذكره حتى يلزمنا استيفاءُ أخباره والالمامُ بأكثر شعره . وإنما ننبه على عالـميّته ونُوردُ أمثلةً من شعره تثبت مقدرته الشعرية التي لا تتنافى ووصفَ العلم الذي قام به ولا يصحّ معها أن يقال في نظمه أنه شعر فقيه ، فإذا حصّلْنا على هذه النتيجة فذلك غاية ما نقصد إليه . وإذا كان ناقدُنا الجزنّائي قد حكم على شعر أبي الفضل بن النحوي لمجرد بيت واحد من شعره كما سبق ذلك ، فإن ما نرويه نحن من أبيات ومقطّعات عديدة للشخص لَهُو أحرى أن يكون أوْثقَ في الحكم وأدلَّ على صحته وصوابه ، مع ما نُحلّـِلُ منها ونُبْرِزُ من محاسنِها إذا اتّسع المجال لذلك . توفي أبو حيان سنة ٧٤٥ بمصر .

يعقوب الكندي

فيلسوف العرب أبو يوسف بن اسحاق بن الصبّاح من أبناء ملوك كندة ، قال سليمان بن حسان أن يعقوب بن اسحق الكندي شريف الأصل ، بصري كان جده ولي الولايات لبني هاشم ونزل البصرة وضَيْعَته هناك ، وانتقل إلى بغداد

وهناك تأدب وكان عالماً بالطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق وتأليف اللّحون والهندسة وطبائع الأعداد وعلم النجوم ولم يكن في الاسلام فيلسوف غيره احتذَى في تآليفه حذْوَ أرِسطُوطاليس . وله تآليف كثيرة في فنون من العلم ، وخدم الملوك فباشرهم بالأدب ، وترجم من كتب الفلسفة الكثير ، وأوضح منها المشكل ، ولخّص المستصعَب ، وبَسط العَويص ذكره في عيون الأنباء . وكان الكندي إلى تَبحّره في العلم ورسوخ قدمه في الفلسفة يتعاطى الأدب ويقول الشعر الجيد فمِنْ قوله متغزلاً :

وفي أرْبع مني حلَتْ مِنــك أربَعٌ
فما أنا أدري أيّها هــاج لي كَرْبي

أوَجهُك في عيني أم الطَّعْمُ في فمي
أم النّطْق في سَمْعي أم الحبّ في قلبي

أنشدهما ابنُ قتيبة في بعض كتبه وقال : واللهِ لقد قسّمها تقسيماً فلسفياً . وأنشد له الشيخ أبو أحمد الحسن بن عبدالله ابن سعيد العَسْكري اللغوي في كتابه الحكم والأمثال قولَه في الحكمة وطبائع الناس :

أنَافَ الذّنابَى على الأرْؤس فغمّض ْجفُونَك أونَكّس
وضائِل ْسوادَك واقبِض ْيديْك وفي قَعر بيتك فاسْتَجْلِس

وعند مَليكك فابغ العُلُوَّ وبالوحدة اليوْمَ فاستأنس
فإنَّ الغِنى في قلوب الرجال وإن التعزّز بالأنفُس
وكائن تَرى من أخي عُسْرة غَنيّ وذي ثَرْوة مُفْلِس
ومن قائم شخصه ميّت على أنه بعدُ لم يُرْمَس
فإن تُطعِم النفسَ ما تشتهي تُقنِكَ[1] جميعَ الذي تحتسي

وهذه الأبيات في خفتّها وسهولتها ، على ما تحتويه من حِكم عَمَلية وتجاربَ فلسفيّة ، تزْري بكثير من الشعر الذي ينسب إلى شعراء ليس عمَلهم إلا الشعر ولا صنعة لهم إلا القريض . مما يثبت أن العلماء كثيراً ما ترجَحُ كفتّهم حتى في هذا الأدب الذي يدّعي بعض الناس أنه وقْف عليهم وان بضاعة العلماء فيه مُزْجاة . والبيت الأخير منَ القِطْعَة يشِفّ عن عِلم صاحبه بالطِبّ ويبعث على الاعجاب بصوغه لذلك المعنى في هذه الصورة وبهذه الألفاظ الفنيّة التي اكتست بحسن تأتّيه لها حُلّةَ البيان والوُضوح . وقد لاحظ ابنُ قتيبة ما في البيتين السّابقين من حُسْن المقابلة والتقسيم وأشار إلى أن ذلك نزعة فلسفية لم تزد الشعر إلا جمالاً ولطفاً . ولا حاجة بنا إلى القول أننا لا نقصد هنا ذكر الشعر الفلسفي فذاك باب سنَطرُقه عند تعرّضنا لموضوعات شعر الفقهاء والعلماء ، وإنما قصدنا الشعر المنبعث من العاطفة والتجربَة المُعَاشة الذي يقوله عامة الشعراء ويُشاركهم فيه

(١) في عيون الانباء: تقيك وهو تصحيف .

غيرهم من متأدبي أهل الفقه والعلم . ومن حسن الحظ أن فيلسوف العرب الأكبر الذي ضربناه مثلاً للفلاسفة الذين قالوا الشعر الجيّد ولم تقعُد بهم الفلسفة عن بلوغ هذه الغاية ، كانَ منَ المُجلّين في ذلك المَجال والحائزينَ فيه قصَب السبق كما رأينا .

أبو بكر بن زُهْر

الطبيب الشهير ، كان من أهل بيت كلّهم أطباء حكماء ، الرجال والنساء في ذلك سواء ، ومع أنه لم يكن في زمانه أحد أعلم منه بصناعةِ الطب ، فقد كان مُشاركاً في علم الفقه والحديث ، وله معرفة واسعة بعلم الأدب والعربية ، كان يحفظ شعر ذي الرمّة وهو ثلث اللغة كما قيل . وخدَم بِطبّه وأدبه الدوْلتَين اللمتونية والمُوَحّدية وحظِيَ عند يعقوب المنصور حتى كان يُصرّفُه في كثير من شؤون الدولة لثقته به ولمّا خبرَه من دِينه وأمانته . وكان لا يصبر على فِراقه ولا يُرَخّصُ له بالسّفَر إلى اشبيلية لرؤية أهله وولده ، فسمعه ذات يوم يُنشِدُ هذه الأبيات يتشوق فيها إلى ولد له صغير :

ولي واحدٌ مثلُ فَرْخ القَطا صغيرٌ تخلّفتُ قلبي لديهْ
وأفْرِدْتُ عنه فيا وَحْشتي لذاك الشُخَيْص وذاك الوُجَيهْ

تشوَّقــني وتشوَّقتُــه فيبكي عليَّ وأبكي عليْهْ
وقد تَعِبَ الشوقُ ما بيننا فمِنْه إليَّ ومنّي إليْهْ

فبعثَ المهندسين إلى اشبيلية وأمرهم أنْ يحتاطوا عِلْماً ببيت ابن زُهر وحارَتِهِ وبَنَى مثلها بحضرة مَراكش في أقرب وقت ونقل عيَالَ ابن زُهْر إليها بعد فرْشها بمثل فَرْشه واحتالَ عليه حتى أتى الحارَةَ ورأى مثل داره فعجب لذلك وقيل له ادخل الدار فدَخلها فإذا هو بأهله ووَلده الذي تشوق إليه فما كاد يملك نفسه من الفرح والسرور .

وحرِيّ بمن كانَ في مثل علم ابن زُهْر وأدبه أن يحظى بهذه الرعاية من مَلِكٍ مثل المنصور الموحدي الذي خلّد التاريخُ أعْمَاله ومآثرهَ .

ومن شعر ابن زُهْر :

إني نظرتُ إلى المرآة إذْ جُـلِيت
فأنكرتْ مقلتاي كلَّ ما رأتَــا
رأيتُ فيهــا شُيَيْخاً لستُ أعْرِفُه
وكنتُ أعرف فيها قبل ذاك فتَى
فقلت أينَ الذي مَثْوَاهُ كان هُنـا
مَتى ترحَّل عن هــذا المكان متى ؟
فاستجهلتْني وقالتْ لي وما نطَقت
قد كان ذاكَ وهذا بعــد ذاكَ أتى

هوّنْ عليكَ فهذا لا بقاءَ له
أما ترَى العُشْب يَفْنى بعدما نَبتا ؟

كان الغَواني يقُلْن يا أُخيِّ فقد
صارَ الغواني يقُلْنَ اليومَ يا أبتَا

وفي هذه القطعة تصوير بديع للشيخوخة وتعبير بليغ عن الحسْرة التي يجدُها المرء في نفسه على شبابه الذاهب وعمره المنقرض . وما أحسن قوله شُيَيْخاً في هذا المقام ، مقام الأسف على ما آلت اليه حاله ، فهو لا ينظر الآن إلى وقار المشيخة وحكْمَةِ التقدم في السن ، وإنما ينظر إلى ضُعفه ونقصان مُنَّته فما يُناسب ذلك إلا صيغةُ التصغير التي تبدو كأنها لم تُوضَع إلا لهذا المعنى . ومثله قوله : « كان الغواني يقلن يا أُخيِّ » فإن التصغير هنا للتحبّب والتقرّب وهما أنسبُ بحالةِ الشباب التي كان عليها وأنكى في ملاحظة الفرق بينها وبين الشيخوخة الفانية .

ويظهر أن تمكّنه من الطب واللغة معاً كوَّنا فيه إحساساً دقيقاً بتشخيص الحالة التي يريد وصفها واختيار اللفظ المطابق لها مطابقة فنية ، فلذلك رأيناه يستعمل التصغير أيضاً في الأبيات المتقدمة التي نظمها في التشوق لولده الصغير ، وذلك حين يقول : « فيا وحشتي ، لذاك الشخَيْص وذاك الوُجَيْه » ، ولا خفاء بحسن موقع التصغير هنا وجماله . ولْيقارِن القارىء

بينه وبين استعمال المتنبي له في مثل قوله : « لُيَيْلَتُنا المنوطة بالتنادي » وقوله : « أذمُّ إلى هذا الزمان أهَيْله » ليزيدَ بعدُ معرفةً بشاعرية صاحبنا .

ومن شعر ابن زهر في الخمريات :

ومُوسّدين على الأكف خُدودَهم
قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلتُ أسقيهم وأشربُ فَضْلَهم
حتى سكرتُ ونالهم ما نالني
والخمر تعلمُ حين تأخذ ثأرها
أني أملتُ إناءها فأمالني

وهو في هذه الأبيات على ما عُهِد منه من لطف وأدب وحسن تصوير . فقد نقل إلينا منظر هؤلاء الشّرب وقد نال منهم الشراب ، بجلاء ووضوح كأننا نراه ، وبيّن أنه كان ساقيهم فهو يُقدّمُهم على نفسه لمكانتهم عنده ، ولا يشرب إلا بعدهم ، فإذا ذكر السّكْر بدأ بنفسهِ وعبّر في حقهم بعبارة مُهذّبة هي الغاية في أدب المُعاشرة ، ثم لَطُفَ ما شاء له اللطف حين أشار إلى الخمر وثأرها وكمّلَ الصورة بهذه الحركة التي جعلتها تنبِضُ بالحياة والواقعية والتمثيل ، فهل يُعلى على هذه الشاعرية ؟

ولابن زُهْر مُوشّحات مشهورة يُغنّى بها وهي من أجوَد ما قيل في ذلك . ولعلّ أسيْرَها على الألْسِنة الموشح الذي يقولُ فيه :

أيّها الساقي إليك المُشتكَى قد دَعونْاك وإن لم تسمَعِ
ونديم همتُ في غُرّتـه وشربتُ الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته جذَب الزّقّ إليه واتّكا
وسقَاني أربعاً في أربعِ

وهو يمثل حياةَ اللهو في الأندلس التي ما يزالُ مظهرُها هو هذا إلى الآن .

ابنُ الياسَمين

وهذا عالم رياضي راسخ القدم في العلم بالحساب والجَبر ، وهو مع ذلك له باع طويل في الأدب ونظم الشعر ، حتى انك إذا سمعتَ شعره تقول لا صنعة له إلا النظم ، فإذا ثَافنْتَ كتُبه في الرياضيات قلتَ انما يحسن هذا مَن انقطع إليه ولم تكن له همة في غيره .

وهو أبو محمد عبدالله بن محمد بن حجّاج من أهل مدينة فاس ، عرِف بابن الياسمين ، والياسَمين أمّه . وكان من خدام المنصور الموحدي ومن جُلسائه . له أرجوزة في علم الجبر شهيرة ، قُرئتْ عليه وسمعت منه باشبيلية . وشرّحها الكثيرُ من أهل هذا العلم . وله أيضاً كتاب تلقيح الأفكار في

العمل برُسوم الغُبار . وفيه يذكر أصل الأرقام العربية المستعملة في المغرب وأخْتَها المستعملةَ في المشرق ويُبيّن أنها جميعاً من أشكال حروف الغُبار وان أطلق على الثانية اسم الأرقام الهندية وبقيت الأولى محتفظة بوصف الغبار وهو كتاب نفيس جداً ما يزال مخطوطاً .

ومن شعره الذي أنشده له ابنُ سعيد المغربي في الغُصون اليانعة قولُه وقد رأى زهْر نارَنْج بظاهر مدينة مراكش :

جاء الربيعُ وهذا	أولَى البشائر منه
كأنما هو ثَغْر	قد جاء يضحك عنه
زهْرٌ لِنارَنْج دوْح	انظر إليه وَصُنْه
أليس حيَّاك عرفُ	الذي جفَا من لدُنْه

وقد أورد له ابن سعيد أشعاراً كثيرة في المدح والهجاء وغيرهما فلتُنظر في كتابه المذكور . وتوفي ابن الياسمين سنة ٦٠١ .

الشريف الإدريسي

الجغرافي الشهير أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبدالله بن إدريس. كان جده إدريس من ملوك الحمّوديّين بالأندلس . وولد هو بسبتة بعد استقرار سلفه بها عند انقراض دولتهم . وخرج

سائحاً في شمال أفريقيا وآسيا الصغرى ، واستدعاه رُوجار الثاني ملك صقلية فأقام عنده وألف له كتابه « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » كتاب شهير لم يؤلف مثله في الجغرافية في العصر الوسيط . وصنَع كرة سماوية ودائرة أرضية من الفضة فُقِدت في حروب صقلية . ويُجمِع العلماء على أن خارطة الإدريسي أضبطُ خارطة للكرة الأرضية وُضِعتْ بعد بطليموس ولا تزال المعلومات التي أعطاها الادريسي في كتابه نزهة المشتاق عن عروض بعض البلدان وأطوالها صحيحة في جملتها لم تخالفها التحقيقات الجديدة إلا بالشيء اليسير . وكان للادريسي علم بالطب والنبات ، وله في ذلك كتاب الأدوية المفردة . وإلى هذا كانت له يدٌ طُولى في الأدب ونظم الشعر ومن قوله في شكوى الزمان :

إنَّ عَيْباً على المشارق أن أر
جِعَ عنْها إلى ذُيول المغارب
وعجيبٌ يضيع فيها غريبٌ
بعد ما جاء فِكرُه بالغرائب
ويُقاسي الظَّما خلال أناسٍ
قسَمُوا بينهم هدايا السحائب

ومنه في الموضوع :

ليْتَ شعري أيـــن قـــبري
ضاع في الغُربـــة عُمْــري

لم أدع للعيْنِ مـــا تشــــــ
تاق في بَــــرّ وبَحْـــر

وخبَـــرتُ النـــاسِ والأر
ضَ لدى خيْـــر وشـــر

لم جـــدْ جـــاراً ولا دا
را كمـــا في طَيّ صَـدْري

فكأني لـــــم أسِرْ الا
بِمَيْت أو بِقَفْــــر

ولا حاجة إلى التنبيه على بلاغة هذه الأبيات ، والّتي قبلها ، وتعبيرها عن حسرة الحرمان الذي لقيه الإدريسي في بلاده ومن بني قومه ، سواء في المشرق والمغرب ، فإنها في غنى عن ذلك ولا يستطيع ناقد أدبي أن يقول فيها أنها دون مستوى الشعراء المشهود لهم بالاجادة والاحسان ، وان كان قائلها عالماً مختصاً . وكانت وفاةُ الادريسي ببلده سبْتة في سنة ٥٦٠ هـ .

هؤلاء سبعة من العلماء ، ثلاثة منهم كانوا أئمة في علوم العربية من نحو ولغة وغيرها ، وبراعتهم في قول الشعر تردّ على من يرى أن أهل المعرفة بعلوم العربية وخاصّة النّحاة أضعفُ الناس شعراً وأقلهم إجادة فيه ، كما ترد على من

يقول بقصور العلماء على العموم عن قول الشعر والتفوق فيه .
والأربعة الباقون كل واحد منهم ممّن برَّزَ في باب من أبواب المعرفة الإنسانية ، كالفلسفة والطب والحساب والجغرافية ، ولم يفُتْه أنْ يُسهم بحظ وافر في الأدب والشعر ، يَكُمُّ أفواهَ المُتقوّلين على أدب الفقهاء والعلماء بعامة ، ويُثبت أن الأمر انما هو همة واستعداد فمن توفر له ذلك فهو أسوة غيْره من الأدباء والشعراء في الملكة الشعرية وأصالتها ، ولا يصح أن يقصر عنهم إلا فيما يقتضيه انقطاعُهم إلى قول الشعر من الإكثار وانصرافِه إلى كفاياته الأخرى من الاقلال .

وقد اقتصرنا على هذا العدد القليل علماً بأننا لو ذهبنا نستقصي كل من قال الشعر وأجاد فيه من العلماء لما وسعتنا المجلدات ، ونحن انما نضرب المثل ونسوق الشاهد ، وفيما ذكرناه على هذا الوجه كفاية .

ادب الفقهاء

القسم الثاني

موضوعاته وأغراضه

تفصيل بعد إجمال :

تلك وجوه ومَعالمُ من أدب الفقهاء روعي فيها الناحية التاريخية والجغرافية وتَنوّعُ الاختصاص في أصحاب هذا الأدب إذْ كان وصف الفقهاء كما قلنا يُطلق على مختلف طبقات أهل العلم وخصوصاً في هــذا السّياق من النقد الأدبي . ونحن نشعر أننا قد اختصرنا الكلام اختصاراً شديداً فيما يقتضيه العرض التاريخي والتقسيم الجغرافي لملامح هذا الأدب والتعريف برِجاله ، ولكننا مع ذلك قد قارَبْنا ما يلتزمه مؤرخو الأدب العربي على العموم من الوقوف عند نهاية العصر العباسي في عملية التأريخ ، وإفراد الأدب المغربي والأندلسي بالذكر ، مراعاة لأصحاب النظرية الاقليمية في الأدب الذين يقولون بتأثير العامل الجغرافي في الأعمال الأدبية أو نظراً فقط لبُعْدِ الاقليم المغربي وتأخُّر وجود أدبهِ عن أدب المشرق . وعلى كل حال فاعتقادنا أننا قد أعطينا أمثلة حية من أدب فقهاء العصور الأدبية والأقاليم التي يُعنى بها مؤرخو أدبنا العربي ، وهي من حيث الكم لا تقلّ عمّا يعطيه هؤلاء المؤرخون من أمثلةٍ لأدبِ غيرِ الفقهاء من كبار الشعراء ، ومِنْ حيثُ الكيف علَى ما وصَفْنا في كل مثال عند عرضه .

فلنُلْقِ نظرة على موضوعات هذا الأدب التي سبق أن عددناها عدّاً اجمالياً في صدر هذا البحث ، لنقول كلمة في كل موضوع منها ، ولنعطي مزيداً من الأمثلة على ما تقدّم ذكره من بعضها غير مُصنّف ولا منْسُوق في الباب الذي يخصّه ، كما أنّ كثيراً من الأسماء التي لم يرد ذكرها في القسم التاريخي المارّ ، إنما يمكن استيعابها في هذا القسم الموضوعي بطريقة تَعْداد الأمثلة واختيار الشاهد ، وهكذا نكون قد قدمنا أدب الفقهاء مرتين ، قدمناه لمن يُعنى بالناحية التاريخية في تراجم أعلامه مرتّبة بحسب السنين ، ونُقدّمه لمن يُعنى بالناحية الموضوعية في فصول وأبواب تنْتظِمُ الأغراضَ والفنون التي تناولها الفقهاء في شعرهم ، والتي تُعطينا نماذج من أدبهم الغضّ في كل موضوع ، ليسهل أمرُ مقارنتها مع أدب غيرهم على من يريد ذلك ثم إننا في هذا التقديم الثاني قد نتجاوز الحد التاريخي الذي وقفنا عنده إلى ما بعده من أزمنة وأشخاص، فنذكر نماذج وأسماء من العصور المتأخرة حتى عهدِ ما قبل النهضة الحديثة ، ولربما تجاوزناه أيضاً رغبة في ربط الحاضر بالماضي واعطاء صورة كاملة عن الموضوع الذي نعرض له ، والحديث شجون كما يقولون :

ويدخل فيه الغزَل والنّسيب . وإنما لم نُعبّر بهما لأنهما في شعر الفقهاء يتميّزان غالباً بشيء من التحفّظ الذي يقتضيه وقارُ العلم ، وهو تحفظ كثيراً ما بعث أصحابنا الفقهاء على اصطناع الأساليب الرمزية والاهتمام بالصفات المعنوية : فصار غزَلُهم بذلك قلّما يشبه غزل الشعراء الذي تغلب عليه الأوصاف الحِسيّة ويغرق في المادية حتّى يكون أدعى إلى الفجور والاستهتار ، وبكل وجه فهناك آفاق واسعة من الشعر الوجداني نظَم فيها الفقهاء ، ليس الغزل إلا جانباً واحداً من جوانبها العديدة ، فحملُه على الشعر الوجداني أوْلى من حمْل هذا على الغزل .

ونفتتح هذا الباب بقول ابن أبي مَلَيْكة فيما هو من معنى قول شوقي (الحياة الحب والحب الحياة) :

من عاش في الدنيا بغير حبيب
فحيَاتُه فيها حياة غريب

ما تنظر العينان أحسنَ منظراً
من طالب إلفاً ومن مطلوب

ما كان في حُور الجنان لآدمٍ
لو لم تكن حوّاء من مرغُوب

قد كان في الفردوس يشكو وحشةً
فيها ، ولم يأنس بغير حبيـــب

نسب هذه الأبيات إلى ابن أبي مليكة الراغب الاصبهاني في محاضراته ، وهي حرية أن تكون أم الباب في هذا المعنى نظراً لمكانة قائلها ، فإنه من فقهاء التابعين ، وقُضاة المسلمين — كان يلي قضاء الطائف لابن الزبير — ونظراً لما عبرت عنه من كون الحياة بغير حبيب غُربة ، فالخَلِيّ القلب من نوازع الحب كالغريب الذي لا يجد رفيقاً ولا صديقاً يأنس به ويشاطره أفراحه وأتراحه ، فيا لوحشتِه وقلقِ حياته . وبذلك كان منظر الإلْفَيْن أو قُل الحبيبين أحسنَ منظر تقع عليه العين ، فما السماءُ بقمرِها ونجومها ، والأرضُ برياضها وحياضها ، والشروقُ بسحره وجماله ، والغُروب بروعته وجلاله ، وكلّ شيء مهما كانَ حسناً جميلاً ، إلا انعكاسٌ لذلك المنظر الذي لا يحلو في العين شيء بدونه ، ولا يبدو فيما يبدو به من حسن وجمال إلا لأنّ المُحبّين خلعوا عليه تلك الحلة ، وزانوهُ بذلك الحُليّ . وابنُ أبي مليكة يُفرّغُ الجنة من جميع الرغائب ، وهي الجنة حافلة بما تصبو اليه النفس ويميل إليه القلب — إذا لم تكن فيها حواء تُبادلُ آدمَ حباً بحب ، وتقابل شعور الأنس والعطف منه بمثله ، حتى الحُورُ العِين لا تدخل تلك المداخل ولا تملأ ذلك الفراغ وهو معنى بديع لم يُسبَق اليه ، وفيه طُمأنينة وسكينة لعقائلنا ورفيقاتنا من الجنس

اللطيف اللائي يتبرَّمْنَ كثيراً بهؤلاء الحُور العين ويستوحشن من مشاركتهن لهن في أزواجهن في الجنة ، فهذا شاعر فقيه يُبين أن لا جمال الحور العين ، وهو جمال ضرَب جميع الأرقام القياسية في هذا الصدد ولا شيء مما في الجنة من المُغْريات ، بقادر على أن يصرف الأحباب عن أحبابهم وبخاصة الرجُل عن شريكته في الحياة الأولى لأن ما بينهما أسمى وأعلى من كل ذلك ، انه رباط رُوحي وامتزاج قلبي ، بدأ منذُ كانا مُنْجَدِلَين في الطين ، وما زال ينمو ويقوى ويَجذب هذا نحو هذه حتى اندمج كل منهما في الآخر وأصبحا ذاتاً واحدة تَجرّ وراءها من الذكريات بقدر ما اشتبكت به حياتهما الماضية من العلاقات ، فكيف وأنّى للحُور العين بهذا التجاوبِ وما فيه من متاع ؟

إننا لهذه المعاني الجميلة التي تضمنتها هذه الأبيات ، ولتقدمها زمناً باعتبار أن قائلها من أهل الصدر الأول ، قلنا انها حَرِية أن تكون أمّ الباب في شعر الغزل والنّسيب ، وما أشبهها بأبيات ابن الرومي السائرة في حب الوطَن التي يقول فيها (ولي وطَن آليتُ أن لا أبيعه) فكما بقيت هذه غُرةَ الشعر العربي في معناها ، كذلك يحق لأبيات ابن أبي مليكة أن تكون واسطة العقد في بابها ، ولا ننس مع ذلك أن صاحبها فقيه .

ولأبي بكر بن عبد الرحمن الزهري ، وهو من رجال الرواية والحديث :

ولما نزلنا منزلا طلّه النّدى أنيقاً وبُستاناً من النَّوْر حاليا
أجدَّ لنا طيبُ المكان وحسنُه مُنىً ، فتمنينا فكنتِ الأمانيا

هذان البيتان من أحسن ما قيل في تمني لقاء الحبيب عندما تجلو الطبيعة محاسنها ، ويَروقُ المكان ويطيب المجلس ، فلا يكمل سرور المحب بذلك ، ولا تقرّ عينه بما يرى ، حتى يحضر حبيبُه ويُضفي من روحه وجماله على تلك المجالي ، ما يجعلها تحلّ من نفسه محلَّ الرضى والقبول ، وإلا فإن الجنة ونعيمها على ما مرَّ آنفاً لا يحلو منها شيء بدون مشاركة الحبيب. ولذلك كان وجوده في مثل هذه الحال أقصى الأماني كما عبر عنه هذان البيتان أرق تعبير . ولا يفوتنا أن نقول انهما من شعر الحماسة ، ولا يختار أبو تمّام لديوانه هذا إلا ما كان غاية في حسن أسلوبه ومعناه .

ومن الشعر العاطفي المُجرَّد قولُ أبي بكر الشبْلي من أكابر الصّوفية :

رُبَّ ورقاءَ هتُوف في الضحى
ذات شجْو صدحت في فنَن

ذكرت إلفاً وعيشاً سالفا
فبكت حزناً فهاجت حزَني

فبكائي ربما أرّقها
وبكاها ربما أرّقني

ولقد تشكوُ فمـــا أفهمُهـا
ولقد أشكو فمـــا تفهمـــني

غير أني بالجـــوَى أعْرفهـــا
وهي أيضـاً بالجـــوى تعرفني

أتُراهـــا بالبكا موُلعـــةً
أم سقاها البيـــنُ ما جرّعني

وهي مُقطّعة تكاد تسيل رِقّةً وعُذوبة ، فما شئت من حسن التقسيم ورد العجز على الصدر ، ومن جمال الأداء لهذا التّداعي بينه وبين الحمامة الشجية وتشابه حاله وحالها في الشوق إلى الحبيب والبكاء لبعده ، إلى قوة التخيّل الذي جعله يعتقد أنها تحس بحرقته وجواه كما يحس هو بجواها وحرقتها ، وان لم يكن الأمرُ كذلك فلِمَ هذا البُكاءُ المُرُّ ؟ هل هو ولوع فقط أم هوَ في الواقـــع شعور بالبيْن وفرقة الحبيب مثل شعوره هو بذلك الذي هاج حزنه وبكاه ؟ الحقيقة أن القطعة معبّرِة أحسن من هذا الذي قلناه في شرحها ، وأنها في غنى عن كل تفسير ، فهي بشكلها ومضمونها قد استولت على الغاية من جـَمال الصياغة وحسن البيان .

ومن لطيف الغزل قول القاضي عياض :

رأتْ قمرَ السماء فأذكرتني ... لياليَ وصلِها بالرَّقْمتيْن
كلانا ناظرٌ قمـــراً ولكن ... رأيتُ بعينها ورأت بعيني

لهذين البيتين شهرة كبيرة بين الأدباء ، وهما وإن لم يُعبّرا عن عاطفة مشبوبة ولا عن شعور عميق ، فقد تضمنا صنعة بيانية عجيبة مبنية على خيال بارع جَعلتْهما يمثلان نوعاً فريداً من الرمزية في الأدب العربي وذلك هو سبب الشهرة التي حظيا بها حتى ادعاهما كثير من الأدباء . فقوله (كلانا ناظر قمراً) هو أعمّ من أن يراد به قمر السماء ولذلك عقبه بما يفيد أن هناك قمرين ، المحبوبة الشبيهة بالقمر ، والقمر الحقيقي الذي هو قمر السماء ، لكنه يرى أن المحبوبة هي القمر الحقيقي فلذلك كان ينظر إليها بعينها هي التي تنظر إلى قمر السماء ، وهذا عنده هو القمر المجازي ، فلذلك جعل المحبوبة تنظر اليه بعينه هو التي ينظر اليها بها . وذلك هو قوله في الأول (ولكن رأيت بعينها) وفي الثاني (ورأت بعيني) ولا شك أن تخيّله هذا هو من إغراقه في هوى المحبوبة بحيث جعلها هي التي يحق أن يشبه بها القمر ، ثمّ كان صوغ هذا المعنى في بيتين اثنين من الشعر منتهى البراعة والمقدرة .

ومن بليغ الشعر في الرقة والنحول قول محمد بن عبد الكريم الفَنْدلاوي الفاسي المعروف بابن الكتّاني ، أحد مشايخ مُحي الدين بن عربي :

وما أبقى الهوى والشوقُ منـي
سوى نفَسٍ تردّد في خيـال
خفيتُ عن المنية أن تـراني
كأن الروح مني في مُحـال

ولكي نتبين فضل هذين البيتين في معناهما ، علينا أن نقارنهما بقول المتنبي في ذلك :

كفى بجسمي نحولاً أنني رجل   لولا مخاطبتي إياك لم ترني

فإنه أثبت لنفسه جسماً وكونه رجلاً يخاطب صاحبه ، في حين أن صاحبنا لم يبق منه إلا نفس متردد في خيال ، ثم ان المتنبي جعل صاحبه يراه ، وأما صاحبنا فقد خفي حتى عن الموت أن يراه وجعل روحه كأنها في محال ، فبين الشعرين بون بعيد .

والشيخ محي الدين أعظم شعراء الوجد والغرام من الفقهاء والصوفية ، وله ديوان سماه ترجمان الأشواق فيه كل معنى بديع من شعر الغزل والنسيب والحب الالهي ، ونقتصر من قوله على هذه الأمثلة المختارة بمعرفتنا :

مرضي من مريضة الأجفان   عللاني بذكرها عللاني
هفت الورق في الرياض وناحت   شجو هذا الحمام مما شجاني
بأبي طفلة لعوب تهادى   من بنات الخدور بين الغواني
طلعت في العيان شمساً فلما   أفلت أشرقت بأفق جناني
يا طلولاً برامة دارسات   كم حوت من كواعب وحسان
بأبي ثم بي غزال ربيب   يرتعي بين أضلعي في أمان
ما عليه من نارها فهو نور   هكذا النور مخمد النيران

وله على طريقة مهيار :

واحَربا من كبدي واحربـا واطرَبا من خلدي واطرَبـا

في كبدي نارُ جوى محرقـةٌ في خلدي بدرُ دُجى قد غرَبا

يا مَبْسماً أحْبَبْتُ منه الحَببا ويا رُضابا ذقتُ منه الضَّرَبا

يا قمراً في شفق من خفَـر بخده ، لاح لنا مُنتقِبـا

لو انه يُسفر عن بُرقعـه كان عذاباً ، فلهذا احتجبـا

وله أيضاً والأبيات الثلاثة الأخيرة هي مما شرّق وغرّب من شعره :

الا يا حمامات الأراكـة والبـان
ترفَقْن لا تُضعِفن بالشجو أشْجاني

ترفقـن لا تظهرن بالنوْح و البـكا
خفيَّ صبابـاتي ومكنون أحـزاني

أُطارِحُها عندالأصيل وبالضحى برنَّة مشتاق وأنَّة هيْمـان

ومن عجب الأشياء ظبيٌ مُبرقع يُشير بعُنَّاب ويومي بأجفان

ومرعاه مابين الترائب والحشا ويا عجبٌ من روضة وسط نيران

لقدصارقلبي قابلاً كلَّ صورة فمرعىً لغزلان وديْرٌ لرهبان

وبيتٌ لأوثان وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراة ومصحف قرآن

أدينُ بدين الحب أنَّى توجَّهتْ ركائبه ،فالحب دِيني وايماني

تُعطينا هذه النماذج على اقتضابها فكرةً عن شاعرية الشيخ الأكبر ، خاصة في موضوع المواجد والأشواق ، فهو شاعر واسع الأفق متفتح الذهن ، يزاوج بين النزعتين الحسية

والمعنوية ، ويشير في خفاء إلى مرامه ولكنه لا يرمزُ ولا يُغمِض ، ومن ثمّ كانت أغراضه مفهومة حتى إنه ليُواخَذُ بها عند من لا يقبلون هوادة في ميْدان التشرع . ونحن نقبل كلامه على أنه من طموح النفس الشاعرة وبَسْطتها وتحليقها في سماء المعرفة ونشدانها للكمال فقد قال ابراهيم عليه السلام (ربِّ أرِني كيف تُحْيِي الموتى) وقال موسى صلوات الله عليه (ربِّ أرِني أنظُر إليك) وقال سيدنا محمد (ص) « نحن أحقّ بالشكِّ منْ ابراهيم » فكيف بنا معشرَ المحجوبين عن حكمة الخلق وسرِّ الوجود لا نتطلّع ولا نستفهم ؟ نعم قد يزِلّ الواحد منّا فيسبق لسانه إلى ما فيه مواخذة عليه ، لأننا غير معصومين ، وهل كان الغُفران إلا للزلل ؟

وما أرقّ كلام صاحبنا في القطعة الأولى ، وألطفَ صفته لحُبه بالمَرض ، ولحبيبته بمَريضةِ الأجفان مُتوخياً في ذلك هذا الجناس الخفيف الذي لا تكلّف فيه ، ثمّ محاورتُهُ بعد ذلك لرفيقته ، وصِفَتُهُ بعد للحمام طائراً ونائحاً في الرياض ، مثيراً لشجنه مهيجاً لحزنه ، مما جعله يعود لذكر الحبيبة وتفديتها بأبيه على عادة العرب في إظهار شعورهم نحو من يحبون ، وما أن جدّد وصفها في رشاقة وتحبّب بما تعوّد الشعراء أن يصفوا به الحبائب حتى غلبت عليه نزعته المعنوية فأتى في البيت الرابع بما يفهم منه أنه يريد الحقيقة العُليا ملمحاً إلى رؤية الخليل للشمس بازغةً ثم آفلة ، ولكنه

لم يكن مُتعرّفاً بل واصفاً ، لأن شاهد الرسالة على المطلوب قائم معه ، فلذلك لم يكن غروب الشمس عنده نهاية وعلامة نقص بل بداية للتجلي واستمراراً للاشراق الذي هو عين الكمال . ويرقى الحال بصاحبنا فيهيم بين أطلال الأحبة ويفنى في ذات محبوبه فلا يشعر إلا وهو يفديه بأبيه مرة ثانية ، ثم بنفسه ويجد حقيقة حبه بين جوانحه وأضلعه المتأججة بنار الشوق والغرام برداً وسلاماً كما كانت نار النّمرود على ابراهيم . لا . بل انه لَيَتَجِدُها نوراً مُخمداً للنيران ، مُوجباً للسكينة والاطمئنان فيأنس ونأنس معه ، لأننا لا نملك ، وقد خاطبنا أولا بما هو من طبيعتنا وبغزل حسيّ رقيق ، إلاّ أن نصحبه في رحلته التي انتهت بنا معه إلى هذا الجوّ من المعاني السامية ، فإذا نحن قد أحسسنا بما أحس أو ببعض ما أحس ، وأشرق باطنُنا بنور الايمان واليقين .

ويطول الأمر لو تتبعنا أغراضَه في القطعتين الثانية والثالثة . وحلّلنا عناصر شاعريته فيهما ، وإنما لا بد أن نشير إلى هذا المعنى الاشاري البارع الذي تضمنه البيت الخامس من القطعة الثانيـــة ، وهو الذي يعلـــل احتجاب المحبوب بالشفقة على المحبين من بهْر المُكافَحة(١) الذي لا تحتمِلهُ بِنيتُهم الضعيفة وهو يرمزُ بذلك إلى قوله تعالى لِكليمه موسى لما سأله الروْية : (انك لن تراني ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني ، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكاً

---

(١) أي المواجهة .

وخرَّ موسى صعقاً) وقد مهّد له بالبيت الرابع الذي لا كِفاءَ له في الجمال ، فجاء متمكناً من موضعه منسجماً مع ما قبله غاية الانسجام .

كذلك نشير إلى اللمحة الشعرية الرائعة التي اشتمل عليها البيت الخامس من القطعة الثالثة ، وقد عبر عنها بصورة أخرى في البيت السابع من القطعة الأولى وعلقنا عليها بما فيه الكفاية . أما الأبيات الثلاثة الأخيرة من القطعة الثالثة فإنها أشهر من أن تُعرَّف ، وقد تُرجمت إلى كل اللغات الحية من شرقية وغربية ، وهي تدلّ على رُوح إنسانية عالية تحْتضِنُ سائر العوالم بالحبّ الذي لا ينضُب معينه ، ولا يُمْنَع من وِرْده أحد .

وغيرُ خفيّ أن هذه الالتفاتات الروحية الجميلة التي يمتازُ بها شعر القوم تجعلُ له قيمةً يفوق بها شعر كبار الشعراء ، وتُرشّحه لأن يكون أدباً إنسانياً عالمياً ، وبالفعل فإن ما نُقل منه إلى اللغات الأجنبية أكثرُ مما نُقِلَ من شعر الشعراءِ الآخَرين . ولو لم يكن به من ميزة إلا هذه لكان جديراً أن ينظر إليه بعين الاجلال والاكبار ، كيف وهو في الصنعة الشعرية أيضاً لا يقصر عن شعر فحول الشعراء كما رأينا . ؟

ويُذكّرُنا الشيخُ محي الدين بسلطان العاشقين عمر بن الفارض ، ذلك الشاعر المُولّه الذي تغنى بالحب الالهي ما

شاء الله الوَلَه ، وتفنّن في معانيه وتعمّق أسرارَه حتى صارَ عَلماً بين الشعراء بشعره الوجداني الرفيع ومقاصده العليا التي يهيم بها أرباب القلوب ، وتجعلهم يَحْفلون بديوانه أشدّ الحفْل ولا يعدلون به ديوان شاعر من شعراء العربية . ولاشتهار شِعْره وديوانه فإنا نكتفي بنَموذج واحد منه وهو أبيات مختارة من قصيدته الجيمية الرقيقة ، قال :

ما بين مُعترك الأحداق والمُهَج
أنا القتيلُ بلا إثْمٍ ولا حرج
ودّعتُ قبل الهوى رُوحي لِمَا نظرتْ
عَيناي من حُسْن ذاك المنظر البَهِج
لله أجفانُ عين فيك ساهرة
شوقاً إليك وقلبٌ بالغَرام شج
لا كانَ وجدٌ به الآماقُ جامدة
ولا غرامٌ به الأشواق لم تهج
عذّبْ بما شئتَ غيرَ البعد عنك تجد
أوفى مُحب بما يرضيك مُبتهج
وخُذْ بقيةَ ما أبقيتَ من رمَق
لا خير في الحب ان أبقى على المُهج

* * *

مَن لي بإتلاف رُوحي في هوى رشإٍ
حُلْوِ الشمائلِ بالأنفاس مُمْتَزج

مَن مات فيه غراماً عــاشَ مُرتقياً
ما بين أهل الهوَى في أرفع الدّرَج

تراهُ إن غاب عني كلُّ جــارحة
في كل مَعنى لطيفٍ رائق بهِــج

في نَغْمة العُود والناي الرَّخيــم إذا
تألَّفا بين ألحــان مـــن الهَزَج

وفي مَسارح غزلان الخمائــل ، في
بَرْد الأصائل والأصباح ، في البَلَج

وفي مساقِط أنداءِ الغَمـــام عــلى
بِساط نَوْر من الأزهــار مُنتَسِج

وفي مساحِب أذيــال النسيــم إذا
أهدى إليَّ سُمَيْرا أطيبَ الأرج

وفي التِثاميَ ثغرَ الكاس مُرتشــفا
ريقَ المدامة في مُستنزَه فَـــرِج

إن هذه الأبيات وحدَها كافية لاظهارنا على شاعرية ابن الفارض ورقة معانيه ولطف تعبيره والأجواء الروحية التي يُحلّق فيها ، فلم يَكُن القوم مُحابين له لما بوّأوه مكان الصدارة بين الناطقين بلسانهم المعبّرين عن حالتهم . وانه فوق ذلك لخليق أن يحتلّ مقاماً رفيعاً بين الشعراء الوجدانيين في الأدب العالمي ، لو أتيح لشعره ترجمة وافية باغراضه إلى اللغات الحية المَقروءة في جميع أنحاء المعمور .

وهذا لون آخر من شعر القوم ، وهو قصيدة فريدة للشيخ عبدالله بن القاسم الشهْرَزُوري المنعوت بالمرتَضى ، يصف فيها رحلة له في عالم الغيبِ طلباً للحقيقة الربانية أولها :

لَمعتْ نارُهم وقد عسْعَسَ اللي
ـل وملَّ الحادي وحـار الدليـل
فتأملتُها وفكري مـن البيـ
ـن عليل ولحظ عيني كليـل
وفُؤادي ذاك الفؤاد المُعـنَّى
وغرامي ذاك الغـرام الدخيل
ثمَّ قابلتُها وقالـت لصحـبي
هذه النار نار ليـلى فميلوا
فرَموْا نحوها لحـاظاً صَحيحا
تٍ فعادت خواسئا وهي حُول

والقصيدة طويلة أثبتها ابن خلكان بكاملها في وفيات الأعيان وأثْنى عليها ، وكذلك أوردها العاملي في الكشكول ، ومن المهم الوقوف عليها فإنها من عيون الشعر الرمزي في العربية .

وفي الباب شعر كثير لأبي مَدْيَن والجيلي والشّشتري والبَكْري والنابُلسي والبُرَعي وابن وَفَاء وحسيْن بن عبد الشكور والحرّاق وسواهم ، مما يطولُ المقام بتتبعه ، ولكن

لا بد أن نقدم ولو مثالاً واحداً للحرّاق باعتبار أنه مغربي .
قلّما يُعرَف شعره في المشرق مع أنّه صاحبُ ذوق سليم
وصنْعة مُحكمة . وليكن ذلك المثال هو الرائية التي ضمّنها
قولَ المجنون :

أماطتْ عن محاسنها الخِمارا
فغادرتِ العقولَ بها حُيارى

وبثّت في صميم القلب شوْقا
توقّدَ منه كلّ الجسم نارا

والقتْ فيه سراً ثم قالت
أرى الإفشاء منك اليومَ عارا

وهل يستطيعُ كَتْمَ السّر صَبّ
إذا ذكر الحبيب لديْه طارا

به لعِبَ الهوى شيئاً فشيئاً
فلم يشعرْ وقد خلَع العذارا

إلى أن صار غيْباً في هواها
يُشير لغيرها ولها أشارا

يُغالِط في هواها الناس طراً
ويُلقي في عيُونهم الغُبارا

ويسأل عن معارفها التذاذاً
فيحسِبُه السورى أن قد تَمارا

ولو فهموا دقائقَ حــب ليلى
كفاهم في صبابتـــه اختبـــارا

إذا يبدُو امرؤ مِنْ حَيّ ليلى
يذِلّ لـــه وينكسر انكســـارا

ولولاهـــا لمـــا أضحى ذليـــلا
(يُقبّل ذا الجدارا وذا الجـــدارا

وما حبّ الديار شغَفْـــن قلبي
ولكنْ حبّ مَن ســكن الديارا)

ولعلنا أسرفنا في إيراد الأمثلة من هذا النوع من الشعر الإشاري أو الرمزي أو الصوفي بعبارة أوضح ، وقد بقيت في النفس حاجة من شعر الغزل والنسيب الخالص وضاق المجال عَن الزيادة فَلْنُلْمِع ببعض الأمثلة القليلة لئلا يظن أن أصحابنا الفقهاء انما برعوا في هذا الشعر الصوفي وليس لهم في غيره من شعر العاطفة والوجدان كبيرُ أثر ، مع أن ما قدمناه في تراجم أفراد منهم كعُروة بن أُذَيْنة وعُبَيْدالله ابن عبدالله بن عُتْبة بن مسعود وأحمد بن المعذّل وابن حزم كافٍ لاقامة البرهان على طول باعهم ورحْب ذراعهم في هذا الباب على اتساعه . ولكن لا بد من أمثلة أخرى تتمم ما سبق وتذكر في مَظِنّتها هنا ويكون بها مسك الختام للباب .

فمن ذلك قولُ القاضي أبي حفص بن عمر :

هم ُ لحظُوا لواحظَـها فهاموا   وتشرَبُ عقلَ شاربها المُدام
يخاف الناسُ مقلتَـها سواها   أيذعَـرُ قلب حامِله الحُسام
سما طرْفي إليها وهو باك   وتحت الشمس ينسكِبُ الغمام
وأذكُر قدّها فأنُوح شوقاً   على الأغصان تنتدبُ الحَمام
وأعْقَب بينُها في الصدرِ غمّاً   إذا غربت ذُكاءُ أتى الظلام

وله أيضاً :

مشتْ كالغُصْنِ يثنيه النسيمُ   ويعدُوه النسيم فيستقـيم
لها ردف تعلَّق في لطيـف   وذاك الردفُ لي ولها ظلُوم
يُعذبني إذا فكرتُ فيـه   ويُتعبها إذا رامتْ تقوم
وما حبي لها إلا عذاب   عليه من نضارتها نعـيم

وكان هذا القاضي بارعاً في النظم والنثر ، وله في الغزل مقطعات رائعة ، ويقول ابن سعيد المغربي فيه إنّه « كان على غاية من الظرف إذا أقبل شُمّتْ رائحة الطيب منه على بُعد ، وإذا غُسلت ثيابه لا يكاد يفارقها ، وكان منزله كأنه جَنة ، حتى وجد فيه أعداؤه مطعَناً ورفعوا للمنصور (الموحّدي) أنَّه غير حافظ للناموس الشرعي بكثرة تغزّله واشتهار مقطعاته وانهماكه في العشق » فنقله المنصور من قضاء فاس إلى قضاء اشبيلية .

وللوزير العالم عبد المهيمن الحضرمي السبتي هذه الأبيات الرقيقة في الحنين إلى عهد وصال الأحبة :

نفسي الفِداءُ لعهد كنتُ آلَفُه
وطيبِ عيشٍ تقضّى كلّه كرَم

وجيرةٍ كان لي أنسٌ يوصلهم
والأنسُ أفضل ما في الوصل يُغتنَم

كانوا نعيم فؤادي والحياة له
فالآن كلّ وجودٍ بعدهم عدَم

بانُوا فعاد نهاري كلّه ظُلَماً
وكان قُربُهم تُمحىَ به الظُلَم

فالعين منيَ لا ترقى مدامعُها
كأنها سحُب تهمِي وتنسجِم

تبكي عهُود وصال منهم سلَفتْ
كأنما هن في إنسانها حُلُم

لئن ضحكتُ سُروراً بالوصال لقد
بكيتُ حزناً عليهم والدموع دم

همْ علّمُوني البُكا ما كنتُ أعرفهُ
يا ليتهم علّمُوني كيف أبتسم

واسترْضَعُوني لبانَ الوصل من صِغَري
حتى إذا علِقَتْ روحي بهم فطِموا

ولابْن جابر المكناسي في المعنى :

تاللهِ بعد أحبَّائي الذين مضوْا
وخلـَّفُوني رهينَ البَثّ والحزن

ما أبصرتْ مُقلتي مِن بعدهم حسَناً
ولا نظرتُ إلى شيء فأعجبَني

ولأبي علي اليُوسي ، وفيه تورية مليحة :

وعادل عن الهوى عاذِل
يدعو لأمْر في الهوى إمْر

قال اسلُهم واصبر فكم ذائق
أمرَّ في الهجر من الصّبْر

وزَع عنَان القلب عمَّا جرى
عليه من بَلْوَاه أو يَجْري

فأيّ عذر في اتّباع الصّبا
قلتُ له ان الهوى (عُذْري)

❋O❋

الشعر الفلسفي

الفلسفة بالاستعمال القديم لم تكن قاصرة على علمي النفس والأخلاق كما هي اليوم ، بل كانت تشمل سائر المعارف الانسانية من نظَرية وعملية ، فتدخل فيها العلوم الطبيعية والرياضية والطب والأخلاق وعلم الجمال . وبهذا المعنى كان أرسطو يستعملها ، وكذلك علماء عصر النهضة الأولون في أوربا مثل فرنسيس بيكون وديكارت وأضرابهما . وبالطبع فإن من نتكلم عنهم من الفلاسفة الأدباء العرب إنما كانوا من هذا القبيل ، ولكنا مع ذلك لا نقدم من شعرهم إلا ما كان له صلة وثيقة بالمباحث الفلسفية بمعناها المحدود ، كمُشكلة الوجود والحقيقة الأزلية وما إلى ذلك . على أن المراد هو أن تكون هذه المباحث هي مُنطلَقُ التفكير الشعري لا الدخول في التفاصيل وعرض أنظار الفلاسفة في الموضوع ، فإن ذلك يؤول إلى تأليف نظم تعليمي في الفلسفة كألفية ابن مالك في النحو وأرجوزة ابن سينا في الطب ، وما أبعدَ هذا عن أغراض الشعر والشعراء .

ولعل الشاعر العربي الوحيد الذي تناول في شعره مشكلة الوجود الانساني والحقيقة العليا واختلاف المذاهب والآراء فيها وكان للتفكير الفلسفي ظل سابغ في معظم انتاجه الشعري

هو أبو العلاء المعري ، وبالرغم من ذلك فإنه لا يمكن أن يقال في شعره أنه فلسفة خالصة ، ولكنه شعر ينطلق من مَحطّ أنظار الفلاسفة ومجالات تفكيرهم .

وهكذا أصحابنا الفقهاء أو العلماء بلفظ أعم ، وإن كانوا فلاسفة حقيقيين ، لا يعرضون علينا في شعرهم إلا جانباً من النظر الفلسفي في ثوب من الخيال الشعري ليكون إنتاجهم عملاً أدبياً ناجحاً .

وأول من نذكره منهم الشيخ الرئيس أبو علي بن سينا ، فإن قصيدته العيْنِيّة في النفس هي العَلَم المرفوع في هذا الباب ، ما زالت منذ قالها صاحبها تتناقلها الرواة ، وتُكتَب عليها الشروح ، وتُخمّس وتُشطّر نظماً ، وتُترجم إلى اللغات الشرقية والأوربية ، وذلك كله من الأهمية التي لها لدى الأدباء والفلاسفة على السواء ، وجوهر الموضوع فيها هو اتصال النفس بالجسد وفراقُها له ، وهي عبرَ ذلك تطرح التساؤلات الآتية : لأي شيء كان هذا الاتصال ؟ فإن كان لغير تحصيل الكمال فهي حكمة طواها الخالق عن إدراك الانسان ، وان كان لتحصيل الكمال فلِمَ يقع الفراق قبل حصوله ؟ وهذا طبعاً بأسلوب يتراوح بين التقرير والتخييل، هو الذي أعطاها تلك الصفة الأدبية التي جعلتها من عيون الشعر الفلسفي . وها هي ذي :

هبطت إليك من المحل الأرفع
ورْقاءُ ذاتُ تعزّز وتمنُّع
محجوبة عن كل مقلةِ عارف
وهي التي سفَرت ولم تتبرقع
وصلت على كره إليك وربما
كرِهَت فراقك وهي ذات تفجّع
ألِفت وما سكنت فلما واصلت
ألفت مجاورة الخراب البَلْقع
وأظنها نسيت عهودا بالحمى
ومنَازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاءِ هبُوطها
عن ميم مركزها بذات الأجرَع
علِقَت بها ثاءُ الثقيل فأصبحت
بين المعالم والطلول الخُضَّع
تبكي وقد ذكرت عهوداً بالحمى
بمدامع تَهمي ولمَّا تُقْلع
وتظل ساجعةً على الدّمَن التي
درَست بتَكْرار الرياح الأربع
إذ عاقها الشركُ الكثيف وصدّها
قفَص عن الأوْج الفسيح المُرْبع
حتى إذا قرُب المسير من الحمى
ودنا الرحيل إلى الفضاء الأوسع

وغدت مُحالفةً لكـــل مُخلَّف

عنها حليف التّرْب غير مشيّع

سجَعت وقد كُشِف الغطاء فأبصرت

ما ليس يُدرك بالعيون الهُجّع

وغدت تُغرّدُ فوق ذِرْوة شاهق

والعِلمُ يرفع كلّ من لم يُرفَع

فَلأيّ شيء أُهبِطت مــن شاهق

عالٍ إلى قَعْر الحضيض الأوضع

ان كان أهبَطها الالــه لحكمة

طُوِيت على الفذّ اللبيب الأروع

وهبُوطها ان كان ضرْبةَ لازب

لتكون سامعةً بمــا لم تســمع

وتَعُودَ عالمــة بكــل خفيّة

في العالمين فخَرْقُها لم يُرقَع

وهي التي قطع الزمان طريقَهــا

حتى لقد غرَبت بغيْر المَطلَع

فكأنها برق تألــق بالحِمــى

ثم انطوى فكأنــه لم يَلْمَــع

أثبتنا هذه القصيدة بكاملها لأننا كلما أردنا الاجتزاء منها بقسم وجدنا أن روعتها لا تكمل إلا بالقسم الآخر ، فهي وحدة مترابطة باشاراتها ورموزها لا يصح تجزيئُها . ونحب

أن ينتبه القارىء إلى جمال التعبير عن النفس بالورقاء وهي الحمامة ووصفها بالتعزز والتمنع وكونها محجوبة سافرة ، وإلْفُها لخراب الجسم مع تطلعها للمحل الذي هبطت منه وذكرها لعهودها بذلك الحمى المنيع ، إلى آخر ما وصفها به . وما أحسن ما وقع قوله في مدح العلم : « والعلم يرفع كل من لم يرفع » بعد ذكر المحنة التي مرت على النفس واكتسبت بها من المعرفة ما رفعها إلى الأوج . وأخيراً يتطرق الشيخ إلى مذهب التناسخ في البيت الذي قبل الآخر فينفيه بتلك العبارة القاطعة مؤكداً مفهوم جواب الشرط المذكور قبله ، من أنه لا كمال في الحياة الفانية ولا رجوع إليها لتحصيله كما يقول أصحاب ذلك المذهب ، فلله درّ ابن سينا ما أجلّه فيلسوفاً وأديباً ومؤمِناً صادقاً ...

وثاني قصيدة بعد العينية ألمّتْ بالمقاصد الفلسفية وإن لم تكن لها شهرتها هي قصيدة ابن الشبْل البغدادي وهو كما في عيون الأنباء : « أبو علي الحسين بن يوسف بن شبل ، مولده ومنشأه ببغداد . وكان حكيماً فيلسوفاً ومتكلماً فاضلاً وأديباً بارعاً وشاعراً مجيداً . وكانت وفاته ببغداد سنة أربع وسبعين وأربعمائة . وهذه القصيدة من جيّد شعره ، وهي تدل على قوة اطلاع في العلوم الحِكْمية والأسرار الالهية . وبعض الناس ينسبها إلى ابن سينا وليست له . وهذا هو في مطلعها الرائع يلقي السؤال الذي لا جواب عليه :

بِربّك أيّها الفلَكُ المُــدار
أقَصْدٌ ذا المسيرُ أم اضطــرار

مَدَارُك قــل لنا في أي شيء
ففي أفهامنـــا منــك انبهـــار

وفيك نرى الفضـــاء وهــل فضاءٌ
سوى هذا الفضاءِ بـــــه تُدار

انها مشكلة الزمن والمكان ، أو الفضاء ، التي حيرت العقول منذ القدم وما زالت بدون حلّ حتى في عصرنا هذا ، عصر الصواريخ والأقمار الصناعية التي تغزو الفضاء يومياً بالعلم الذي جعل من هذا الفضاء ومباحثه مادة اختصاص يعكف عليها مئات العلماء في الشرق والغرب ، فلا ينتهون إلا إلى أبعاد سحيقة إنما هي مظهر من عظمة الكون وهندسته العجيبة فأما عِلّتُه وسرّ تكوينه فأمر محجب لا سبيل إلى معرفته والاطلاع عليه ، وذلك ما صاغه ابنُ الشِّبْل في هذا المطلع بلباقة حِكْمية وبراعة أدبية لا نجدهما إلا عند أمثاله من العلماء الأدباء .

ويُتابعُ صاحبُنا أسئلته الحائرة عن مصير الإنسان بعد مفارقة الحياة ، وعن المَجَرَّةِ ونَهْرِها العجيب والشمس والنجوم والشّهب الضاربة فيقول :

وعندك تُرفَع الأرواح أم هل
مع الأجساد يُدرِكُها البَوار

ومَوْجٌ ذي[1] المَجرَّةُ أم فرنْد
على لُجَج الدروع لـه أوار

وفيك الشمس رافعة شُعاعـا
بأجنحة قَوادِمُها قِصار

وطوْقٌ في النجوم من الليالي
هلالُك أم يَدٌ فيها سِوار

وشُهْبٌ ذي الخواطف أم ذُبال
عليها المَرْخُ يقدح والعَفار

وترصيعٌ نجومُك أم حبَاب
تولّف بينه اللّجَجُ الغِزار

تمُدّ رُقومها ليْلاً وتُطوى
نهاراً مثل ما طُوِيَ الإزار

فكم بصِقا لهـا صدِىء[2] البرايا
ومـا يصدا لهـا أبداً غِرار

ويطول بنا التعرض لما تناولته القصيدة بعد هذا من تقلب

---

(١) في عيون الأنباء : الذي ننقل عنه : ذا .

(٢) في عيون الأنباء : صدي بدون همزة و يصدي بياء ألف .

الزمن بأهله وعكس مرادهم ، وخطيئة الانسان الأول وما جرته من شقاء على الإنسانية ، وان كان لا يصحّ غض الطرف عن قولها في وصف القيامة ، وفيه ملامح من وصف القرآن لذلك اليوم الهائل ونصه :

إذا التكويرُ غالَ الشمسَ عنا — وغالَ كواكبَ الليل انتشار
وبُدّلنا بهذي الأرض أرْضاً — وطوّح بالسموات انفطار
وأُذهِلت المراضعُ عن بنيها — لحيرتها وعُطّلت العِشار
وسُيّرت الجبال فكُنّ كُثباً — مَهيلاتٍ وسُجّرت البحار
فأينَ ثباتُ ذي الألباب منا — وأين مع الرّجوع لنا اصطبار

وهو وصف بليغ يدل على مقدرة ابن الشبل البيانية وعلى إيمانه العميق ، برغم ما أبداه من حيرة وأثاره من إشْكال إزاءَ بعض المأثُورات . ثم هو يُنهي قصيدته العظيمة بقوله في عظمة الكون والاعتبار بقدرة الخالق :

فما لِسُموّ ما أعلى انتهاء — ولا لسُمُوكِ ما أرسى قَرار
ولكن كل ذا التهويل فيه — لِذي الألباب وعظٌ وازدجار

ولابن الشبل أيضاً قصيدة في رثاء أخيه أحمد ينبغي أن تكون توأم قصيدة أبي العلاء المعري المشهورة في رثاء أحد فقهاء

الحنفية ، بما طرقه فيها من أفكار في فلسفة الموت والحياة مع جودة التعبير وبلاغة الأداء ومنها قوله :

صحـــةُ المرء للسَّــقام طريـــق
وطريق الفناء هـــذا البقـــاءُ

بالـــذي نغتـــذي نموتُ ونحيَى
أقتَـلُ الـــداء للنفُوس الـــدواء

ما لَـقِينا من غدْر دنيا فلا كا
نت ولا كـــان أخذُهـــا والعطاء

راجِـــعٌ جودُها عليها فمهما
يهَـــب الصبحُ يستردَّ المســـاء

ليت شعْري حُلْماً تمرُّ بنا الأيـــ
ـــامُ أم ليْس تُعقَـــل الأشياء

مِن فسادٍ يَجنْيه للعالَم الكو
نُ فمـــا للنفوس منه اتّقـــاء

قبَّح اللهُ لذَّةً لأذانـــــا
نالَهـــــا الأمهـــاتُ والآباء

نحـــن لولا الوجودُ لم نـــألم الفقـــ
ـدَ فإيجـــادُنا عليـــنا بَـــلاء

وهذه أبيات مشهورة في معان فلسفية مختلفة ، فمنهـــا للشهرستاني صاحب كتاب المِلَل والنحل :

لقد طفتُ في تلك المعاهد كلها
وردّدتُ طرفي بين تلك المعالم
فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائر
على ذقن أو قارِعاً سِنَّ نادم

وللفخر الرازي :

نهايةُ أقدام العقُول عِقال
وأكثرُ سعْي العالَمين ضَلال
وأرواحُنا في عُقْلة من جسومنا
وحاصِلُ دنيانا أذىً ووَبال
ولم نستفِد من بحثنا طُولَ عمرنا
سوى أن جمَعْنا فيه قِيلَ وقالوا
وكمْ قد رأينا من رجال ودولة
فبَادُوا جميعاً مُسرعين وزالوا
وكم من جِبال قد علَتْ شرُفاتِها
رجالٌ فزالوا والجبال جِبَال

ولابن أبي الحديد :

فيكَ يا أُغلوطةَ الفكـ ـر غدا الفكرُ عليلا
أنتَ حيّرْتَ ذوي اللـ ـبِّ وبَلْبلتَ العقُولا
كلّما أقبَل فِكْري فيك شِبْراً فَرَّ مِيلا

ولِبَلْمُظَفَّر بن مصرّف في الرد على الطبائعيين :

وقالُوا الطبيعة مبْدَا الكيـان
فيا ليْتَ شِعْرِيَ ما ذِي الطبيعه ؟
اقادرةٌ طبَعَـت نفْسَها
على ذاك أم ليس بالمُسْتَطِيعه ؟

ولأبي سليمان المنطِقي ، ويحتوي على نزعة وجودية مع الاقرار بخُلود الحقيقة العليا :

لَذَّةُ العيْشِ في بَهِيمِيَّة اللـ
ـذة لا ما يقوله الفلسفيُّ
حُكْمُ كأسِ المَنُون أن يتساوَى
في حَساها الغَبِيُّ والألْمعِيُّ
ويَحلّ البليدُ تحت ثرى الار
ض كما حلَّ تحتها اللوْذَعِيُّ
أصبحا رِمَّة تزايلَ عنها
فصلُها الجوهَرِيُّ والعَرَضِيُّ
وتلاشَى كِيانُها الحيواز
يُّ وأوْدَى تمييزُها المنطِقيُّ
فاسْألِ الأرضَ عنهُما إن أزال الشـ
ـكَّ والمِرْيَةَ الجوابُ الخفيُّ
بطلَت تلكُم الصفاتُ جميعاً
ومُحال أن يبطُلَ الأزَليُّ

هذه نماذج من شعر أصحابنا الفقهاء العلماء في موضوع الفلسفة وما يتّصِلُ بها من المباحث العقلية ، هي من جهة مادة غزيرة في الأدب العربي قلّما نعثُر على نظير لها فيما أنتجه غيرهم من شعر يتجافى كثيراً عن منازع الفكر ومُشْتجر الآراء في مطالب النفس وحقيقة الوجود ، وذلك طبعاً باستثناء فيلسوف الشعراء أبي العلاء المعري . ومن جهة أخرى هي أعظم دليل على قوة مَلَكَتهم الشعرية وعارِضَتهم الأدبية ، إذْ أخضعوا تلك الأنظار والمذاهب المختلفة لحكمهم وعبروا عنه بعبارات دالّة وكلام واضح لم تضق عنه قوالبُ النظم ولا عَيَّت به أساليبُ البيان . وذلك غايةُ ما يطلب من أئمة الأدب وحَمَلة الأقلام .



وشعر الأخلاق والآداب أو الوصايا والحكم في أدب الفقهاء ينبوع ثَرٌّ ، ومعدن غنيّ بالأعلاق النفيسة والجواهر الكريمة ، إذ كانوا هم مصدر الآداب ومُقَعّدي قواعد الأخلاق ، ما بين شَرْعية وسياسية . فالمُتَشرّعون منهم يستمدون من الأصليْن العظيمين اللذيْن اشتملا على أحسن الهَدْي ، وهما الكتابُ والسنة . والمتفلسفون يأخذُون خيرَ ما عند أصحاب التعاليم وعلماء الأخلاق ، ممّا يتوافقُ ومبادىء الدين الحنيف الذي يقول رسوله الأكرم ، صلى الله عليه وسلم : « بُعِثْتُ لأتَمّمَ مكارمَ الأخلاق » وبذلك يكون الشعر الصادر من الفقهاء في هذا الباب هو أمْثَل هذا الشعر من حيث المضمون ، لاحتوائه على زُبْدة ما جاءت به الشريعة وأيّدته الحِكْمَة من قواعِد السلوك ومعاملة الناسِ بعضِهم لبعض ، وأما من حيث الشكل فهو على ما سنرى وما رأيناه في غيره ، حُسْنَ بناء وإحْكامَ صَنْعة .

ولعل خير ما نؤيد به قولنا هذا هو شعر الفخر الذي قاله فقهاؤنا رحمهم الله ، فهو يسير على وَتيرةٍ غيرِ التي يسير عليها فخرُ الشعراء الذي يستحيل في بعض الأحيان إلى بهْلوانية

أدْعى ما تكون إلى السّخْرية منها إلى الإعجاب ، وذلك بما يتضمّنه من الادّعاء الفارغ والتطاول الذي لا حدّ له ، في حين أن فخر العلماء ينحو منحىً تهذيبياً ويُمثّل الاعْتِزازَ بالعلم والهمة العالية والخلق الكريم ، ولذلك أدخلناه في الشعر الحِكمي ولم نجعله باباً مستقلاً كما هو في شعر الشعراء غير الفقهاء .

ولنستمع إلى ما يقوله الامام الشافعي في هذا الصدد :

عليّ ثيابٌ لو يباع جميعها
بفلْس لكان الفلْسُ منهن أكثرا
وفيهن نفس لو يُقاسُ ببعضها
نفوسُ الورى كانت أجلّ وأكبرا
وما ضرّ نصلَ السيف إخلاقُ غِمْده
إذا كانَ عضْباً حيث وجّهته فرا

فهو يفخر بنفسه ويعتز بها ويقارنها بنفوسِ مَن يرى من البشر المتنافسين في الدنيا المتهالِكين على الأطماع ، فترجَحُ بها وتسمو عليها ، لأنها ليست منْ بابَتِها ولا مِن وادِيها ، إذ بينما هذه مطلبُها الكمال وتطلّعُها إلى معالي الأمور ، إذا بتلك إنما تستهويها المادةُ وليس لها مطلب غيرُ الدينار والدرهم اللذين يُتوصّل بهما إلى قضاء مآربها الوضيعة والظهور بمظاهر العظمة الكاذبة من لباس

فاخر وزينة مُتناهية ؛ لم يكن للشافعي رحمه الله منها إلاّ ثياب بسيطة تُراد للستْر لا للمباهاة بحيث لو عُرضت للبيع في السوق لما تجاوز سومُها الفلس الواحد من بَخْس ثَمنِها ووَكْسِ قيمتها . ولكن متى كانت قيمةُ الشافعي وأمثاله فيما يلبسون أو يأكلون أو يسكنون ؟ وأين هم الآن أولئك الذين عايشوهُ من أهل الثّراء الواسع ، والمآكل والملابس ، والدّور والقصور ، والخَدَم والحَشَم ، والرّياش والأثاث ، هل تُحِسُّ منهم من أحد أو تسمَعُ لهم رِكْزاً ؟

إنها ملايينُ النفوس وأعْدادُ الذَّرِّ من الناس ، لا نعرف لهم اسماً ولا نقف منهم على أثَر ، تمتعوا بزينة الحياة الدنيا وكانت هي غاية مرادهم ، فذهبوا ولم يتحدث عنهم رائِح ولا غادٍ ، والشافعي في ثيابه الرخيصة ونفسِه الغالية ، ما يزالُ علَى مرّ العصور وتعاقبِ الأجيال ، خالدَ الذكر ، علي القدر ، مِلْءَ سمْعِ الدنيا وبَصرِها .

فهذا فخر يقترنُ بالتوجيه ويُوحي بمعان من السمو والعظَمة لا يعرفها إلاّ أهل العلم ولذلك جعلناه من أمثلة شعر الأخلاق والآداب .

ومن شعرهم السائر الذي بلغ الغايةَ في الاعتزاز بالعلم وتَرفّع حملتِه عن الابتذال ، قولُ القاضي أبي الحسن علي بن عبد العزيز الجُرجاني صاحب كتاب الوَساطة بين

المتنبي وخصومه :

يقولون لي فيك انقباضٌ وانما
رأوْا رجلا عن موقف الذل احْجما

إذا قيل هذا مَشرَبٌ قلتُ قد أرى
ولكنَّ نفسَ الحر تحتمِلُ الظَّما

ولم أقضِ حقَّ العلم إن كان كلَّما
بدا مَطْمَعٌ صيّرتُه ليَ سُلَّما

ولم أبتذِلْ في خدمة العلم مُهجتي
لأخْدُم من لاقَيْتُ لكن لأخْدَما

أأشقَى به غَرْساً وأجنِيه ذلَّةً
إذنْ فاتّباعُ الجهل قد كان أحْزَما

ولو أن أهلَ العلم صانُوه صانَهم
ولو عظَّموه في النفوس لَعُظّما

ولكن أهانُوه فهانُوا ودنَّسُوا
مُحيَّاه بالأطماع حتى تَجَهَّما

تُمثِّل هذه الأبيات قمّة شعر الفخر في أدب الفقهاء سواء من حيث المعنى أو الأسلوب ، فهي تعبر بأحسن عبارة عن أعمق المشاعر التي يُحِسّ بها من أكرمهم الله بالعلم فأغناهم عن كل مطلب سواه ، وصاروا بحيث لا يُغْريهم

المال ولا يَغُرُّهُمُ المَنصِب ، لأن الأجواء التي يحلّقون فيها تتكشّف لهم عن عوالِمَ في منتهى الروعة والجمال ، تملأ نفوسَهم غبطةً وسروراً ، وتغمرُ قلوبهم رضاً وطُمأنينة . فما المالُ وما المنصِب بإزاء السعادة التي يجدونها في الانقطاع إلى العلم وحياته الهنية ؟!

والناس يرَوْن عُزوفَهم عن تجمّعاتهم اللاهِية وعدَم خَوْضِهِم فيما يخوض فيه غيرهم من الأباطيل ، فيصفونَهم بالانقباض والشذوذ ، والحالُ أنّ وقار العلماء يمنعهم من النزول إلى حضيضِ الابتذال ، فإذا كان غيرهم من ذوي السلطة والنفوذ يتصنّع ويتكلّف للمهابة والتوقّر ، فإنّ سَمْتَ العلم قد أحاطهم بهالة من التعظيم والاحترام تَنْحَسِرُ عنها الأبْصار . وإذا كان هذا شأنَ العلماء الحقيقيين ، فإن غيرهم من المُدَّعين لا نَصيبَ لهم من هذا الشرف ، لأنهم لم يصُونوا العلم ولم يعظّموه ، ورَضوا أن يكونوا مَطيّةً للجبابرة وأعواناً للمتسلّطين لِقاءَ ما ينالونه من فُتات موائدهم ، فهُم قد حُرِموا لذةَ العلم وحُرِموا معها عِزّتَهُ ، وهؤلاء هم الذين يعنيهِم القاضي الجرجاني في البيتين الأخيرين من القطعة . اللذين هما مَغْزَى فخرِهِ ، وصرّح به ليكون أبلغَ في التوجيه والايحاء .

ومن هذا المعنى قولُ أبي الحسن النّعَيْمي البصري أحدِ مشيخة القرن الخامس :

إذا أعطَشتْكَ أكُفُّ اللئام كفَتْكَ القَناعةُ شِبْعاً وريّا
فكن رجلاً رجْلُه في الثَّرى وهامةُ هِمَّته في الثُّريّا
أبيّاً بنفسك عن باخِلٍ تراه بما في يديْه أبيّا
فإنَّ اراقةَ ماء الحيا ة دُونَ اراقة ماءِ المُحَيَّا

وهي أبيات قليلة النظير في الحض على علوِّ الهمة وشرف النفس وعدم التشوف لما في يد الغير وصيانة ماء الوجه من أن تُكدّره أو تَستنزِفَه الحاجاتُ والأطماع ، ولعل شاعراً غيرَ فقيه لا يستطيع أن يأتي بمثل هذه الأبيات في بلاغة معناها وجزالة مبناها لأن رصيد الشعر مليءٌ بالسؤال والرجاء والأمل ، فلا يتفلّتُ مَن يكون هو رأسَ ماله من تأثيره فيه والإنفاق منه إذا اضْطُرَّ إلى ذلك ، بخلاف الفقيه الذي يعرِفُ حكمَ الشريعة في السؤال ويروي قولَ الرسول (ص) : « لأنْ يأخُذَ أحدُكم حبلَه فيحتطب فيبيع فيأكل خيرٌ له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وقوله : « لا يزال الرجلُ يسأل الناس حتى يُبعثَ يوم القيامة وليس في وجْهِهِ مُزْعَةُ لَحْم » فإنه يستقي من ماءٍ غيرِ آسِن ، وإذا قال شعراً في وجوب الاحتفاظ بالكرامة الشخصية فلا يكون إلا هكذا .

وحكى السّبْكي في الطبقات أن البرقاني كان يقول في صاحبنا النّعيْمي : « هو كامل في كل شيء لولا بَأو فيه » ونحن نقول حبذا البأوُ الذي يُمْلي على صاحبه هذه الأبيات الرائعة ...

ومن شعر عبد المهيمن الحضرمي وهو من شيوخ ابن خلدون وكان كاتب العلامة للسلطان أبي الحسن المريني قولُه ، وفيه لُزومُ ما لا يلْزَم :

أبتْ همتي أن يراني امرؤ
على الدهر يوماً له ذا خُنُوع
وما ذاك إلا لاني اتَّقيْت
بعزّ القناعة ذُلّ القُنُوع

القُنوع السؤال ، ومما حبّب لنا روايةَ هذين البيتين هنا أن صاحبهما كان في حياته العَملية عند قوله هذا ، ولم يكن مُتبجّحاً بكلام لا ظل له من الحقيقة كما هي عادة الشعراء غالباً (ألمْ ترَ أنهم في كلّ وادٍ يَهيمون وأنّهُم يقولون ما لا يفعلون) فقد حدَث أن السلطان أبا الحَسَن المَريني الشهير أغْلَظَ له القول ذات يوم ، وهو يَلي كِتابَة علامتِه ، فأخذ عبد المهيمن القلمَ وكسرَه أمام السلطان وقال : « هذا الجامعُ بيني وبينَك » وقام مغاضِباً له : فخجل السلطان ونَدِمَ على ما صدر منه وترضّاه وأفضَلَ عليه .

وهكذا صدقَ فعلُه قولَه وطابقَ سلوكُه فخرَه ، وتلك هي أخلاق العلماء ...

ونَعرِضُ للشعر المخصوص بالوصايا والحِكَم مكتفين

بهذا القدر من شعر الفخر ، وللشافعي في الباب أبياتٌ عامرة منها قوله في الاخوان :

أُحبّ من الاخوان كلّ مُوات
وكلّ غضيض الطرف عن عثَراتي

يُوافقني في كل أمر أُريده
ويحفَظُني حيّاً وبعدَ مماتي

فمَن لي بهذا ليت أني أصبْتُهُ
فقاسمْتُهُ ما لي من الحَسنات

تصفّحتُ اخواني فكان أقلّهم
على كثرة الاخوان أهلُ ثِقاتي

ومنها في النصح العام :

دَعِ الأيامَ تفعل ما تشاء
وطِبْ نفساً بما حكَم القضاء

ولا تجزعْ لِحادثة الليالي
فما لِحَوادث الدنيا بَقاء

وكنْ رجلاً على الأهوال جلْداً
وشيمتُكَ السماحةُ والسخاء

ولا حزْنٌ يدوم ولا سرورٌ
ولا بؤْسٌ عليك ولا رخَاء

ورزقُك ليس ينقصُـــه التـــأنيّ
وليس يزيد في الــرزق العَناء
إذا ما كنتَ ذا قلــب قَنُــوع
فأنت ومالِــــكُ الدنيا ســوَاء

ومنها في الحث على السفر :

ما في المُقام لذِي عقل وذي أدب
من راحةٍ فــدع الأوطانَ واغترب
سافر تجدْ عِوَضاً عمَّــن تُفارقه
وانصَبْ فان لذيذ العيش في النَّصَب
إنيّ رأيتُ وقوفَ الماءِ يُفسِـــدُه
ان سار طاب وان لم يَسْرِ لم يطب
والاسْدُ لولا فِراقُ الغاب ما افترست
والسَّهْمُ لولا فراق القَوْس لم يُصِب
والتِبْر كالتُّرْبِ مُلقىً في أماكنه
والعُودُ في أرضه نوعٌ من الحَطب
فإن تغرَّب هــذا عزَّ مطلبُـــه
وان تغرَّب ذاك اعتزَّ كالذهب

إن هذه القِطع من شعر الشافعي أشهرُ من أن تُعرّف فهي

تجري على كل لسان ، وذلك لسهولتها وسلامة منطقها ، فالناس يتمثلون بها في كل مناسبة ، وتلامذَةُ المدارس يستظهرونها لأنها مما يُلقَّنونه في محفوظاتهم ، ولذلك اقتصرنا عليها وإلاّ فإن الأمر كما قال في الطبقات الكبرى « ولا معنى للاكثار من ذكر شعر الشافعي رضي الله عنه وهو شيء قد طبّقَ الأرض » .

ومن شعر أحمد بن المُعدَّل السائِر مَسْرى الأمثال :

ولستُ بنظَّار إلى جانب الغِنى
إذا كانت العلياء في جانب الفقر

واني لَذُو صبر على ما ينُوبني
وحسبُكَ أن الله أثنى على الصبر

ومن شعر عبد الرحمن بن القاسم صاحِب الامام مالك : وقد شدَّ الرحلة إلى لقاء الامام بالمدينة من بَلَدِه مصر ، وهو كثير الانشاد بين أهل العلم :

أقولُ وزَمَّتْ للرحيــل ركائِبي
أعِدّي لِفَقْدِي ما استطعتِ منَ الصَّبر

أليسَ من الخُسران أن لياليــا
تمرّ بلا نفعْ وتحسَبُ من عُمْري

ومقطعات العلماء في غرَض الأدب والحكمة كثيرة بل ان منهم من لم يكن ينظم الشعر إلا في هذا الغرض كمنصور الفقيه وقد ترجمنا له وذكرنا نماذج من شعره . ومحمود الورّاق وهو ممّن أكثر وأطاب في هذا الباب وكان من أهل العلم والرواية ، أخذ عنه ابنُ أبي الدنيا ، وتوفي في خلافة المعتصم ، ولإحسانه وشرَف منزَعه يكاد لا يخلو ديوان من دواوين الأدب من إنشاد مقطعاته الجميلة ، ونحن لمُوافقة المقصد نورد منها بعض العيون تقديراً لِعَمَلِه الأدبي الجليل وإشاعةً لِنُصحه الخالص المثيل .

فمن ذلك قولُه في التحذير من التتايُع في الذنوب :

يا ناظراً يرنُو بعينَيْ راقِد
ومُشاهِدٍ للأمر غيرِ مُشاهِد

تصِلُ الذنوب إلى الذنوب وترتجي
دَرْكَ الجِنان بها وفوْزَ العابد

ونَسيتَ أن الله أخرجَ آدماً
منها إلى الدنيا بذَنْب واحد

وقولُه وهو من الأمثال السائرة :

تعصِي الالهَ وأنت تُظهر حبَّه
هذا لعمْري في القياس بديع

لو كان حبّك صادقاً لأطعتَـــه
ان المُحِبَّ لمن يُحبّ مُطيـــع

وقوله في مداراة الأصدقاء :

دارِ الصديق إذا استشاط تغضّباً
فالغيظُ يُخرِج كامِـــنَ الأحقاد
ولَرُبَّما كـــان التغضّب باعثـــاً
لِمثالـــب الآباءِ والأجداد

وقوله في معنى كاد الفقر أن يكون كفراً :

لبِستُ صُروفَ الدهر كهْلاً وناشئاً
وجرّبتُ حالَيْه على العُسر واليُسر
فلم أرَ بعد الدّين خيراً من الغِنى
ولم أر بعد الكُفْر شراً من الفَقْر

وقوله في معنى انما الأعمال بالخواتم :

أخـــافُ على المُحسِـــن المتـــقي
وأرجُو لذي الهفـــواتِ المُسِي
فذلِك خوفي عـــــلى مُحْسِنٍ
فكيف على الظالم المُعْتَـــــدي

على أن ذا الزَّيْغ قـــد يستفيق
ويسأنِفُ الزيغَ قلبُ التـقي

وقوله في الحض على الانفاق :

تمتَّـع بمالِك قبـــل الممات
وإلاَّ فلا مالَ ان أنتَ متّـــا

شقِيتَ بـــه ثم خلّفتَه
لغيرك بُعـــداً وسُحقـــاً ومَقْتَا

فجادُوا عليك بزُورِ البكاء
وجُدتَ عليهم بمـــا قد جمعْتَا

وأرْهنتَهم كــلَّ ما في يديك
وخلّوْك رَهْنـــاً بما قـــد كَسبْتَا

وقوله في عدم عيْب الفقر :

يا عائبَ الفقر أمـــا تَزْدَجِــرْ
عَيبُ الغنى أكثر لـــو تعتَبِـــرْ

مِن شَرف الفقر ومِـــن فضله
على الغني لو صحَّ منك النظَرْ

أنك تعصِي كي تنـــالَ الغـنى
ولستَ تعصي الله كيْ تفتَقِـــرْ

وبعد هذه النبذة من شعر الشيخ محمود الوراق نتعرض لِلَوْن آخر من شعر أصحابنا الفقهاء في المواعظ والنصائح، وهو ما يوجّهونه إلى أبنائهم خاصة وإن كان مضمُونه عاماً يصلح للجميع. ان هذا البحث يجب أن يأخذ بأطراف الموضوع وان لم يستوعبه كل الاستيعاب فمن الضروري أن نُلِمّ بهذا النوع من الشعر الحِكْمي أيضاً.

فمما اختزناه منه قولُ يَمُوت بن المُزَرَّع النحوي الأديب الراوية المشهور، ابنِ أخت أبي عثمان الجاحظ، يُوصي ولده المُهلهِل:

مُهَلْهِلُ قد شربتُ شُطورَ دهري[1]
وكافَحني بـه الزمَن العَنُوتُ

وجاريتُ الرجال بكـل رَبْـع
فأذعَن لي الحُثالَةُ والرّتُوت[2]

فأوجعُ ما أجُنّ عليـه قلبي
كريمٌ عضَّه زمَـن بغُوت

كفى حزَناً بِضَيْعة ذي قـديم
وأبناءُ الطريف لهـا التّخوت

وقد أسهرتُ عيني بعـد غمْض
مخافةَ أن تضيع إذا فنيـت

(١) أي جربته وعرفته. (٢) الرؤساء.

وفي لطف المهيمن لي عزاء
بمثلك ان فنيتُ وإن بقيتُ
وإن يشتدّ عظمك بعد موتي
فلا تقطعك جائحة سبُوت[1]
فجُبْ في الأرض وابْغ بها علوما
ولا تلفتْك عن هذا الدّسوت
وان بخلَ العليم عليك يوماً
فذلّ له ودَيْدنُك السكوت
وقُل بالعلم كانَ أبي جواداً
يُقال فمَن أبُوك فقل يَمُوت
تُقرّ لك الأباعدُ والأداني
بعِلْم ليس يجحده البَهُوت

ومنه قول الشيخ أبي اسحق ابراهيم بن مسعود بن سعيد التّجيبي ينصَح ابنه أو ابن أخيه على ما قيل :

أبا بكر دعوتُك لو أجبتَا
إلى ما فيه حظك ان عقلْتا
إلى عِلْم تكون به إماما
مُطاعاً ان أمرتَ وان نهيْتا
ويجلو ما بعينك من عَشاها
ويهديك السبيل إذا ضَللْتا

(١) قاطعة .

ينالُك نفعُه ما دمتَ حيا
ويبقى ذُخْرُه لك إنْ ذهبتا

وتحمِلُ منه في ناديك تاجاً
ويكسُوك الجميل إذا اعتَريتْا

هو العَضْبُ المُهنَّد ليس ينبُو
تُصيب به المَقاتِل إنْ ضَربْتا

وكنزٌ لا تخَافُ عليه لِصا
خفيف الحمْل يُوجَد حيث كنتا

يزيد بكثرة الإنفاق منه
وينقُص ان به كفّاً شددتا

إلى أن يقول :

وان أُوتيتَ فيه طويلَ باع
وقال الناس إنك قد سبَقْتا

فلا تأمَنْ سؤالَ الله عنه
بتوبيخ : علِمْتَ فهل عَمِلْتا ؟

فرأسُ المال تقوى الله منا
وليسَ بأن يُقال لقد رأسْتا

وأحسنُ ثوبك الإحسانُ لا أن
تُرى ثوبَ الاساءة قد لَبِستا

إذا ما لم يُفِدْكَ العلمُ خيراً
فخيرٌ منه أن لو قد جَهِلتا

وان ألقَاك فهمُك في مَهاوٍ
فليتَك ثم ليتَك ما فَهِمْتا

وهي قصيدة طويلة نجتزىء منها بهذا القدر . ونلاحظ أنها مع وصية يموت بن المزرع تعبّر عن أبُوة حانية واهتمام شديد بمستقبل الولد الناشىء وحرص على حيازة جميع الخير له وجعْل طَلَبِ العلم هو أول ما يهم به الناشىء ، ولعل ذلك مما تمتاز به عن نصائح الشعراء لأولادهم ، فإن العلم في الاسلام من أهم الواجبات ، ولهذا يأخذ به المشائخُ أولادَهم ، وذلك إلى ما تُركّز عليه النصحَ من تقوى الله والعمل بالعلم وعدم الافتتان بالدنيا . وقد خلَصت هذه الروح إلى عصرنا هذا فتأثّر بها كل من قال شعراً في وصية ابنه من أهل العلم كالمرحوم عبدالله باشا فكري في أبياته المشهورة :

إذا نامَ غِرّ في دُجَى الليل فاسْهَرِ
وقُمْ للمعالي والعَوالي وشَمّرِ

وأخيراً نُومِىءُ إلى مُطوّلات أصحابنا الفقهاء الأدباء في الوصايا والحِكَم ، التي ضَاهَوْا بها أحسنَ مُطوّلات الشعراء وفاقُوها بما مَزجوا به نصائحهم من مبادىء التربية العالية التي تحرِصُ على تهذيب النفوس واحياء الضمائر وفتْح

القلوب الغُلْف لما جاءَ به الإسلام من خيْر وبِرٍ وإحسان .

وفي طليعة هذه المُطوّلات نُونيّةُ أبي الفتح البُسْتي الرائعة التي لا كِفاءَ لها في الحسن والجمال ، فقد جمعت إلى النصائح الغالية والآداب الرفيعة مَتانةَ الأسلوب والتفنّنَ في الأداء مما يجعلها فريدة في بابها . وكان البُسْتي من مشائخ العلم والرواية فضلاً عن رسوخ قدمه في الأدب ، سمع الكثير من ابن حبان وروى عنه الحاكم وغيرُه وكان صديقاً لأبي سُليْمان الخَطّابي الذي سبقت ترجمته .

ونحن لا نَرْوي مُطوّلَة أبي الفتح كلّها لاشتهارها وعَدم خُلُوّ أي ديوان أدبي منها ، ولكِنّا نحب أن نضع اصبع القارىء على أبيات منها تُثْبت ما قلناه صدْرَ هذا البحث فيما يمتاز به شعرُ الفقهاء الحِكْمي من كونِه يحوي زُبْدة الآداب والأخلاق التي أتى بها الشرع وحسّنَها العقل ، وان كان جميعُ ما قدمناه مِن كلامهم يدُور في هذا الفلك .

فمنها المطلع الذي يقول فيه :

زيادةُ المرء في دنيـــاه نقصان
وربْحه غيرَ محْضِ الخير خُسران

وكلّ وجْدانٍ حظّ لا ثباتَ له
فإن معناه في التحقيق فُقْـــدان

انّ التزْهيد في الدنيا من مقاصد الدّين ، أيَّ دينٍ كان ، ولكنَّ عرْضه في شكْل عَمَلِيّةٍ حسابية كهذه الصّورة

التي قدّمها لنا البستي في مطلَع مُطولته هو من نتائـِج الفكر الفلسفي ، وبذلك يكون مَزَج بين التعاليم الشرعية والوَضْعيّةِ ليُخرج هذا المطلع البارع .

ويتمادى صاحبُنا في مزْج الحكم الفلسفية بالنصائح الدينية فيقول :

يا خادمَ الجسم كم تشقَى بخدمته
وتطلُب الربح فيما هُوَ خُسران

أقْبِل على النفس فاستكمِلْ فضائلها
فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

ويأتي بعد ذلك بجملة من الأبيات تتضمّن حِكَماً عملَية في السلوك والأخلاق يبتدئها بقوله مَن يفعل كذا يلق كذا فتُذكـِّرُنا أبياتـُه هذه بنَظيرتيها في مُعلّقَة زُهَيْر الذي حكمَ لهُ عمرُ بنُ الخطاب رضي الله عنه بأنه أشعر الناس ، لتلك الأبيات التي يقول فيها ومَن ومَن . وكنّا حَرِيّين أن نعقدَ مُقارنةً بين أبيات زُهير وأبيات صاحِبنا لولا مراعاةُ الأدبَ اللازم لمقام الخليفة الثاني وحُكْمِه .

ثمّ يقولُ البُسْتي جامعاً بين قوْلهم رأسُ الحكمة مخافةُ الله والآيةِ الكريمة : (كلاّ إنّ الإنسانَ ليَطْغَى أنْ رآهُ استغنى) في بيت واحد مُحكَم البِناء حسَنِ التصوير :

هما رضيعا لِبانٍ حكمةٌ وتُقى
وساكِنَا وطَنٍ مالٌ وطُغْيانُ

ويُلمّح إلى الوصية التقليدية وهي العلم والعمل فيقول في إيحاء جميل :

يا أيّها العالمُ المَرْضِيّ سيرتُــــه
أبشِرْ فأنتَ بغير المـــاء رَيّـــانُ
ويا أخَا الجهلِ لو أمسيْتَ في لُجَجٍ
فأنتَ ما بينهـــا لا شك ظمْــآنُ

ويختم بهذا البيت الفذّ الجامع :

وكلّ كسْر فإن الدين يجبُــــره
وما لِكَسْر قنَاةِ الدين جبْرانُ

وهناك مطولة ثانية سارتْ كلَّ مسار واشتهرت أيَّ اشتهار وهي لأحد أدباء الفقهاء أيضاً نعني به القاضي عُمَر بن الوَرْديّ ، وتُعْرف بلامية ابن الوَرْدي أو بأوّلِ كلمة منها وهي (إعْتَزِلْ) لأنها تبدأ هكذا :

إعْتَزِلْ ذِكْر الأغاني والغزَلْ
وقُلِ الفصل وجانِبْ من هزَلْ

ويغلِبُ على هذه المطولة طابَعُ الحِكْمَة العربية المطعّمَة

بتعاليم الدين ، فهي بعد هذا المطلع الذي يُبين عن نظْرة فِقْهية إلى الغِناء وما يليه ، تُؤكّدُ على الإعراض عن حياة اللهو والمجون وتُحذّر من الاستهتار في الهوى والتصابي ، وان كان قد لُوحظ على ابن الوردي أنه في بعض أبيات هذا القِسْم يُعَدّ مُغْرِياً ببعض ما حذّر منه أكثرَ منه مُحذّراً ، ثم تنهَجُ المطولةُ نهْجَ الحكمة العربية في الاعتبار بالماضين واتيان الموت على الأولين والآخرين :

كُتِبَ الموتُ على الخَلْق فكَمْ
فلّ من جيش وأفنَى من دُول

أين نُمرودُ وكنْعانُ ومَن
ملك الأرض وولّى وعَزَل

وتُعرّج بعد ذلك على الوصية بطلب العلم والتفنن فيه والاشتغال بالأدب وعدم ابتذاله وتقول :

أنا لا أختارُ تقبيلَ يـد
قطْعُها أجملُ من تلك القُبل

مُلكُ كِسْرى تغني عنه كِسْرةٌ
وعن البَحْر اجْتِزَاءٌ بالوشَل

ثم تُنبّهُ على سخافة الافتخار بالأصل والفصل في هذه الأبيات المعبّرة :

لا تقُل أصلي وفصْلي أبـــداً
انما أصل الفتى ما قــد حصَــل

قد يسودُ المرءُ من غــير أب
وبِحُسْنِ السَّبْك قد يُنفَى الزَّغل

قيمةُ الإنسان مــا يحسنُه
أكثرَ الإنسان منه أو أقــــل

ثم تُشيرُ إلى مسؤوليّة الحكم وتُنفّر منه بهذين البيتين السائرين :

لا تَلِ الحُكْمَ وان هم ســألوا
رغبةً فيك وخالِفْ من عــذَل

إن نصفَ النــاس أعداءٌ لمــن
وَليَ الأحكامَ هــذا إن عَــدَل

وبعد وصايا أُخرى عامة يختِمُ ابنُ الوردي مطولتَه بهذه الأبيات متحدثاً عن شخصه :

أيّهــا العائِبُ قولي عَبــثـاً
إن طيبَ الورد مُودٍ بالجُعَل

عَدِّ عن أسْهُم لفظي واشتمل
لا يُصيبنَّك ســهْمٌ من ثُعَل

لا يغرّنّك لِيــنٌ مـــن فتى
إن لِلْحيَّات لِيناً يُعْتَزَل

أنا كالخيزُوز صعبٌ كسرُه
وهْو لَدْنٌ كيفما شئتَ انفتَل

غيرَ أني في زمانٍ مَن يكُن
فيه ذا مال هوَ المولى الأجل

واجبٌ عند الورى إكرامُه
وقليلُ المال فيهم يُستَقَل

كلّ أهل العصر غُمْرٌ وأنا
منهمُ فاتْرُك تفاصيل الجُمَل

وهذا حُكْم خطير واعتراف أخطَرُ منه . ونُشيرُ إلى أن لامية ابن الوردي بالخصوص تُعطي صورة غيرَ مُرْضِية عن عصْره ومجتمعه ، وبما أن هذا الجانب منها لا يهمّنا فإننا لم نتعرض له .

ومُجمَلُ القول فإن ما أوردناه في هذا الباب من شعر الفخر وشعر الآداب والأخلاق كلّه مما يشهد لأصحابنا الفقهاء بقوة العارضة في الأدب ورسوخ الملَكة في الشعر ويجعلهم يقفون في صفّ كبار الأدباء والشعراء من غير طبقتهم ولا يترك مجالاً لانتقادٍ يُميّز كلامهم من كلام عامة أهل الأدب وقَالَةِ الشعر إلاّ انتقاداً مُغْرِضاً لا نَصَفَة فيه .

لا يمدحُ الفقهاءُ رغبة في المال ، ولا يتعرضون للأمراء قصدَ الحصول على جوائزهم فإن ذلك شأن الشعراء الذين ابتذلوا الشعر بالتكسب به ، بعد أن كان عزيزاً رفيعاً . أما الفقهاء فإنهم احتفظوا للشعر بمكانته العالية ولم يغُضّوا مِن قَالَتِه الذينَ يُنْمَوَن إلى طبقتهم ، لاعتزازهم بالعلم وترفعهم عن السؤال ، ولقد كانوا هم الذين سجّلوا هذه الانتكاسةَ التي وقع فيها الشعر ، منذ عهد النابغة والأعشى ، كما نرى ذلك في كتاب العُمْدَة وغيره من دواوين الأدب . فليس غريباً أن نرى عكس القضية بالنسبة إليهم ، أي أن يمدح الأمراءُ الفقهاءَ . فهذا الخليفة أبو جعفر المنصور يقول في عمْرو بن عُبَيْد وقد بَهره علمُه وزهدُه :

كلّكم يمشي رُوَيْـــدْ كلّكم يطلُبُ صيْـــدْ
غيرَ عمْرو بن عُبيْدْ

ولما مات رثاه ، بأبيات من نظمه[1] ، ولم يُسمع بخليفة رثَى مَن دونه سواه .

وأصفقَت كلمةُ الفقهاء على ذمّ مَن خالف هذا السلوك ، وتعلّق بأذيال الملوك ، حتى قال أبو القاسم الشاطبي منهم :

قُلْ للأمــير مقــالــةً من عالِم فطِنٍ نبِيــه
إن الفقيـــه إذا أتى أبوابَكم لا خــير فيــه

(١) انظر ابن خلكان ج ل ص ٣٨٥ .

وهم يصدرُون في ذلك عن مبدإ استقلال القضاء ، إذْ كانوا هم أهلَه ومتولّيه ، وعن مبدإ حرية الفكر ، إذْ كان لهم حق الرقابة على سياسة الدولة بِمُوجب تصدّيهم للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فمهمتهم لا تتلاقى بحال مع مداخلة الأمراء ومدحهم وإسلاس القياد لهم ، ولذلك كانوا يشْتَبِهون بالفرد منهم إذا خَرَق هذا الناموس ولم يحافظ على وقار العلم وجلاله . وكان العامة معهم على هذا الرأي ، فهم لا يُكبِرون قدرَ العالم إذا كان يحشُر نفسه في حاشية السلطان ، لأن ذلك مدعاة لموافقته على هواه ، والأمرُ بكل اعتبار لا يعدو ما فطِن له الغربيون أخيراً ولم يحصلوا عليه إلا ببذْل التضحيات الجسيمة ، وهو حماية القانون والتعبير عن الرأي بفصل السلطات والحصانة النيابية وما إلى ذلك .

وأكثر ما يمدح الفقهاء تقريظاً لزُملائهم من أهل العلم والدين ، وتمجيداً للرسول (ص) وثناءً على الله عز وجل . ولا يعني هذا أن أحداً منهم لم يمدح أميراً ولا ذا سلطان قط ، فلكل قاعدة شذوذ . وقد كان هناك من العلماء مَن مدحوا الملوك والخلفاء ، إلا أنهم قِلّة ، ومع ذلك فهم لم يستهتروا في هذا الأمْر استهتار غيرهم من الشعراء ، ولم يتخذوه حرْفة . وكانوا لا يمدحون إلا مَن يستحق المدح ، ويُلاحَظ أنّ مدحهم يُباينُ مدح الشعراء في الغالب . فابنُ دُرَيْد لما مدح ابنَيْ مِيكال بمقصورته الشهيرة لم يجعلها مدحاً مُجرّداً

على الطريقة التقليدية ، وإنما نظمها سِمْطَ لآلىءَ وعِقْدَ جواهر ، فجاءت تحفة نفيسة تزهو بما تضمنته من فنون الأدب وعيون الحكم وصار المدح أهونَ أغْراضها حتى انه لا أحد يطلبها لأجله . وقد تركها سُنَّةً تبعه عليها حازِمٌ القَرطاجَني حين نظم مقصورته المعروفة في المستنصر الحَفْصي سلطان تونس .

ومع ذلك جاء العلامة النحوي أبو زيد المكودي فنظم مقصورته في مدح النبي (ص) ولم يَسَعْهُ إلا أن يُنكِّت على سلَفَيْه هذين لمدحهما غير من يستحق المدح في نظره ، فقال في آخرها :

مقصورةٌ لكنهـــا مقصـــورةٌ
على امتداح المصطفى خير الـــورى
مـــا شِبْتُها بمـــدح خلق غـــيرهِ
لرُتْبَةٍ أحظَى بهـــا ولا جَـــدَى
فقتُ عَلاءً كـــلَّ ذي مقصورة
وان همُ نالوا الأيـــادي واللّهى
فحازِمٌ قـــــد عُدَّ غيرَ حازم
وابنُ درَيْد لـــم يفِده ما دَرى[1]

ومن قصائد المدح التي على هذا الغِرار داليةُ أبي علي الحسن اليوسي في شيخه أبي عبدالله محمد بن ناصر الدَّرعي

(١) نشرنا مقصورة المكودي مع شرح مختصر عليها منذ سنين بمصر باهتمام المكتبة التجارية لصاحبها مصطفى محمد .

الشهير ، انها قصيدة عامرة الأبيات ، جمعت من فنون الأدب الشيء الكثير ، كالنسيب والأمثال والحكم والوصف والمدح والتهنئة ، إلى شرح المملكة الانسانية وآداب السلوك ومنازل السائرين من فلسفة التصوف ، وكل ذلك في نفَس عال ولغة متينة ، وأسلوب بديع ، وهي تقع في ٥٤٠ بيتاً ، ولا يوجد فيها رَوِيّ مُكَرَّر ، ولا ضرورة تُستنكر . ومن محاسنها كما قال صاحبها أن نسيبها جار على أسلوب معظم القدماء من بكاء منازل الأحباب والأثر ، على التحقيق لا على مجرد الفرض كما هو حال معظم المُحدَثين .

وهذا مطلعها :

عرِّجْ بمنعرَج الهِضاب الوُرَّد
بين اللّصاب وبين ذات الارمدِ
وأجِزْ من الجزع الذي بَحضيضه
أجداثُ أصْداء العشير الهُمَّد
واربَعْ على الرَّبْع المُحيل هنيئةً
ان الربوع ربيعُ قلب الأكمَد
وقِف المَطِيَّ على ديار أحبة
كانوا الغياثَ من الزمان الأنكَد

ومن مدحها قوله :

غيثُ الورى الشيخ ابن ناصر الذي
نصر الالهُ بـه شريعة أحمـد

وأعاد وجـه الدين أبيض مسفراً
بَهِجاً مُقرّاً عيَن كـل موحد

وأقام سمْكَ بنائـه حتى سما
فوق السّماك على الأواسي الوُطَّد

وأزاح عنه كلَّ حِندس شُبُهْة
وضلالـة وغَواية وتشدّد

ومنه وفيه وصف الوضع الاجتماعي والديني في بلاد الاسلام على ذلك العهد :

وافيتَ والبدعُ الحـوادثُ قد وفت
ظلُماتُها ، والجهل وارِي الأزْنُد

والدينُ مطموس المعـالم والهُدى
بَيْضُ الأنُوق ولُقطَة لم تُنشَد

والسنة الغراء قفْـرٌ مُوحِش
ما فيه مـن هادٍ ولا من مُهتد

نشبت بضَبْعيْها مخالِبُ ضيْغَم
من مَألف العادات عـادٍ مِحرْد

ومحا المُحاقُ بُدورَها فتكنَّفت
مُقَلَ النهى ظلماءُ ليـل سرمَد

وعفَت أعاصيرَ الهوى آثارُهـا
فاستبهمت عن ناشِدٍ أو منشِـد

واستوثقت أيدي الغوايـة والهوى
بأزمَّة الألباب ، شُلَّتْ مِن يدِ

والعلم ضاحٍ ظلّه وصدى التقى
قد صمّ والغيّ اعتـلى بمُجَنَّد

فكشفتَ جلبابَ الجهالة عن سـنا
بدر لِسَائمـة الظلال مُبَدِّد

بلْ ضَوء صبْح بلْ نهار ناسـخ
آياتُـه ليلَ الشكوك الزَّرَّد (١)

وأنشد الشيخ رَزّوق في ابن عباد الرّنْدي شارح الحِكَم العَطائية :

ومِن علمه أن ليس يدعَى بعالم
ومن فقره أن لا يُرى يدّعي الفقرا

ومِن حاله أن غاب شاهدُ حاله
فلا يدّعي وصلا ولا يشتكي هجرا

وهذان البيتان قد بلغا في المدح غاية لا يدركها إلا من استحضر معاني الألفاظ المستعملة فيهما بإصطلاح مشائخ التّربية وأهل التصوف . فمن شأن العلماء الراسخين أن لا يتبجّحوا

(١) نشرت دالية اليوسي هذه مع شرح لناظمها باسم نيل الأماني في شرح التهاني أول مرة بمصر سنة ١٢٩١ ه .

بالعلم ، لأنهم يعرفون أن فوق كل ذي علم عليم . ومنتهى العلم إلى الله العظيم ، فلذلك كان ابن عبَّاد لا يُدْعَى بالعالِم في الوقت الذي كثُر فيه المتهالكون على هذا الوصف حتى كاد يفقد معناه الحقيقي.ومَن قرأ كتبه واطلع على ترجمة حياته عَرف ما كان عليه من هدْي صالح وسَمْتٍ حسَن ، وأيْقن أن أمثلَ المدح بالنسبة اليه هو ما جاء في الشّطر الأول من هذين البيتين . ثم إن الفقر في الشطر الثاني المرادُ به فقرُ السّلوك والطريق المعروف عند المتصوفة ، وكون الفقير بهذا المعنى لا يدعي الفقر هو المطلوب منه ، لأن دعواه له تُعدّ تظاهراً أو مُراءآة للناس . ومن ثمّ قال ابنُ البنّاء السّرَقُسْطيّ في نظم المباحث الأصلية :

قولُ الفقير إنني فقــــيرُ
إلى الظهور أبـــــداً يُشـــــيرُ

والمتصوفة الأحرار لا يتظاهرون بشيء مما يدل على مذهبهم وطريقهم . ولذلك كثُر إنكار العلماء المصلحين على أدْعياء التصوف الذين يحسبون أنه هو لُبس المُرَقّعات وتعليق السّبَح في الأعناق ، فمِن هنا كان عَدَمُ ادّعاء ابن عباد للفقر دليلاً على صحة فقره أي تجرّدِه وسُلوكِه على طريق القوم ، لا سيما وهو على ما ذُكِر في ترجمته كان حسنَ اللّباس كثير التعطّر والتطيّب حتى قيل ان السلطان أراد مجاراتـه

في ذلك فقصّر عنه ، وهذا مظهر سُنّي ينفِي عنه كل دعوى في التقشّف والمَسْكَنة ، ويأتي البيت الثاني مؤكداً لاسقاط الدعوى وموافقة الظاهر للباطن بصورة أخرى ، فالحالُ فيه هو بالاصطلاح الصّوفي ما يعرض لأرباب القلوب في لحظات الاشراق من وجْد وهُيام ، وشاهِدُه هو ما يصدر عنهم أثناءه من فعل أو قول قد يكون فيه مخالفة للشرع ، لكن الممدوح هنا من ضبْطه لأحواله واستقامة أموره على نهج السنة ، لا يعتريه ما يخدش وقاره ولا يصدر منه ما يخل بورعه وحاله ثابت لا يحتاج إلى شاهد ، لأنه عرف مقامه فلزمه ، ولم يكن ليدعى وصلاً ولا يشتكي من هجر ، لتمام تحققه بمفهوم (وما منّا إلاّ لهُ مقامٌ معْلوم) وهكذا وصفَ البيتُ صاحبنا بكمال المعرفة وأضفى عليه حلة من جلال القُرب تتقطع دونها الأعناق .

إن هذه الشحْنة من المعاني الذّوْقية والسّلوكيّة التي عُبّىءَ بها هذان البيتان في حسن تأتّ وبراعةِ تناوُل لَمِمّا يشهد لأدباء الفقهاء بالابداع والتفوّق حتى في المجالات التي تفرد بها الشعراء وظنوا أن لا مُنافِس لهم فيها . وسيبقى هذان البيتانِ علَمَيْن مُفرَدَيْن في باب المدح بما يختص بالممدوح ، ولا يقبل المشاركة كأكثر أشعار المدح فضلاً عن غرابة منْزعهما على الذين لم يعرفوا المدح إلا بالحِلْم والجُود والشجاعة وما شابهها من الأوصاف التي تُرَصّ رَصاً وقلّما تُخرّج في

صور مُوحية وأمثولات حية ، ولذلك حُبِّب إلينا ايرادهما وتوضيحهما بهذه الكلمة .

ويمدحُ الفقهاءُ السلفَ الصالح اعترافاً بفضلهم ، واشادةً بمزاياهم ومن ذلك قول ابنِ أبي عِمْران موسى بن محمد بن عبدالله الواعظ الأندلسي في أم المؤمنين عائشة (رض) :

ما شأنُ أم المؤمنين وشاني
هُدِي المُحب لها وضَلّ الشاني

اني أقول مُبيّناً عن فضلها
ومُترجماً عن قولها بلساني

يا مُبغضي لا تاتِ قبْر محمد
فالبيت بيتي والمكان مكاني

اني خُصصت على نساء محمد
بصفات برٍ تحتهُنَّ معَان

وسَبقتُهنّ إلى الفضائل كلها
فالسبْق سبقي والعِنان عناني

مَرِض النبي وماتَ بَيْن تَرائِبي
فاليومُ يومي والزمان زماني

زوجي رسولُ الله لم أر غيره
الله زوّجني به وحباني

وأتـــاه جبريل الأمـــين بصورتي
وأحبني المختـــار حين رآني

أنا بِكْرُه العـــذراء عندي سرّه
وضجيعه في منــــزلي قمـــران

وتكلم الله العظـــيم بحجـــتي
وبراءتي في محكـــم القرآن

وهي قصيدة طويلة سنتعرض لها في بحث آخر ان شاء الله .

أما مدحهم للنبي (ص) فهو البحر الزاخر ، الذي لا يُعرَف له أول من آخر ، وقد نظموا فيه القصائد المطولة التي ضمّنوها صفاتـه وأخلاقَه وسيرتَـه الكريمة ، والقصائد المتوسطة والمقطعات والأبيات حتى لَيحارُ الباحث فيما يأخذ وما يدع من هذه الدرر النفيسة والأعلاق الثمينة .

ومن الملاحظ أنه بعد الشعراء الصحابة الذين مدحوه (ص) في حياته ، ونافحوا عنه وعن دعوته ، ونازلوا شعراء المشركين في معارك كلامية ، غبّروا بها في وجوههم ونقَضُوا كل ما هَجَوْا به الاسلام ورسوله الأكرم ، أمثال حسان بن ثابت وعبدالله بن رواحة وغيرهما ، لم يتعاط أحد من الشعراء الكبار مدح الجناب النبوي كما تعاطاه أدباء الفقهاء ، برغْم إسْراف أولئك في مدح ذوي الجاه والحكام من أهل زمنهم ،

فأنت لا تجد في ديوان جرير أو الفرزدق مثلاً من شعراء العصر الأموي ولا في ديوان المتنبي أو أبي تمام كذلك من شعراء العصر العباسي مقطوعة فأحرى قصيدة في هذا الغرَض ، فهي فضيلة تُذكر ، ومأثرة تشكر ، لأصحابنا الفقهاء والأدباء ، أبانوا بها براعتهم في هذا الباب من أبواب الشعر ، وعبروا عن عاطفتهم الدينية وعاطفة كل مؤمن ازاء الواسطة العظمى في كل خير ونُجْح وفلاح أصاب الأمةَ العربية والاسلامية بل الانسانية جمعاء من رسالته التي كانت رحمة للعالمين .

فمن أشهر المطولات في هذا الصدد القصيدة المعروفة بالشقْراطيسيّة ، نسبة إلى ناظمها الشيخ أبي محمد عبدالله بن يحيى الشقراطيسي التوزَري المتوفى سنة ٤٦٦ هـ وهي لامية من بحر البسيط جمعتْ إلى المدح والثناء أحداث السيرة النبوية وحياة الدعوة الاسلامية منذ انبلاج فجرها إلى أن عمت أقطار المعمورة ، وذلك بأسلوب شعري جميل يتراوح بين التقرير والتخييل ، وهي تقع في ثلاثة وثلاثين ومائة بيت . وقد نالت شهرة كبيرة بحيث خمّسها كثير من الأدباء وشرحوها وأخذها العلماء بالرواية عن ناظمها ونجد بعضهم يستشهدون بأبياتها في كتبهم كالزرقاني في شرح المواهب وغيره ، وما غطّى عليها وقلّل من رواجها إلا ظهور البردة والهمزية للبوصيري وانتشارُهما هذا الانتشار الواسع المشهود ومطلعها :

الحمد لله منَّا باعثِ الرّسُل
هدًى باحمد منا أحْمدَ السّبُل

خيْر البريـة من بدْوٍ ومن حَضر
وأكرم الخلق مـن حافٍ ومنتعِل

ومنها في وصف فتح مكة ودخوله (ص) اليها في جيشه الظافر :

ويومَ مكة إذْ اشرفتَ في أُمم
يَضيقُ عنها فِجاجُ الوَعْث والسهَل

خوافقٌ ضاق ذَرْعُ الخافقَيْن بها
في قاتِم من عَجاج الخيل والابِل

وجحفل قَذِف الارجاء ذي لجَب
عرمرم كزُهاء الليـل منسحل

وأنتَ صلّى عليك الله تقدُمُهم
في بهْوِ إشراق نُور منك مكتمِل

يُنير فوق اغرّ الوجـه مُنتجب
مُتوَّج بعزيز النصر مُقتبـل

يسمو أمام جنـود الله مرتديـاً
ثوب الوقـار لأمر الله ممتثـل

خشعتَ تحت بهـاء العزّ حين سمتْ

بك المَهابـة فعلَ الخاضع الوجِل

وقد تباشَر املاكُ السماء بمـا

ملكْت إذ نِلْت منه غايةَ الأمَل

والأرض ترجُف من زَهْو ومن فرَق

والجو يزهر اشراقـاً من الجذَل

والخيلُ تختال زَهْواً في أعِنَّتها

والعيسُ تنْثال رَهْواً في ثُنى الجُدُل

لولا الذي خطّت الأقلامُ من قـدر

وسابق من قضاء غير ذي حِول

أهلّ ثهلانُ بالتهليل من طرَب

وذاب يذْبل تهليلاً من الذبّل[1]

المُلكُ لله هذا عِزّ مَن عُقدت

له النبوة فوق العـرش في الأزَل

ومن أعلاها نفَساً وأحكمها صِناعة مُطوّلةُ ابن أبي الخِصال المسماة بِمِعْراج المناقب ومنهاج الحسب الثاقب التي نظم فيها نسبه (ص) إلى آدم عليه السلام بطريقة لم يسلكها غيره من الوقوف عند كل فرْد فرْد من عَمُود النسب الشريف وذكر ما له من المناقب، ثم عطف على ذلك معجزاتـه الباهرة وفضائل أصحابه الكرام مُتصرّفاً في ذلك بفنون القول

(١) من هل الرجل ، أي فر وجبن .

وأساليب البلاغة التي جعلتها تحظى من كبار العلماء وخاصة الأدباء بعظيم التقدير وفائق الإعجاب . حتى انهم كانوا يتنافسون في روايتها بالسنَد المتصل إلى ناظمها الذي يُعَدّ من أساطين رجال العلم والأدب بالأندلس في القرن السادس ، وكان كاتباً لعليّ بن يوسف بن تاشفين بمراكش ، وقيل ان وصف كاتب لم يطلق على نظير له في الاندلس وهذا أولُ مطولته :

إليْك فهَمّي والفُــؤادُ بيثْرب
وإن عاقني عن مطلع الوحي مَغْرِبي
أُعلّل بالآمــال نفســاً أغرّهــا
بتقديم غايــاتي وتأخير مـــــذهبي
ودَيْني على الأيــام زورةُ أحمد
فهل ينقضي ديْــني ويقرُب مطلبي
وهل أرِدَنْ فضلَ الرسول بطِيبة
فيا بَرْد أحشائي ويا طيبَ مشربي
وهل فضِلت من مركب العُمر فَضْلة
تبلّغني أمْ لا بــلاغ لمَرْكـــبي
ألا ليتَ زادي شربةٌ مـــن مياهها
وهل مِثلُها رِيّــا لغُلّة مُذنِب
ويا ليتني فيهــا إلى الله صابــر
وقلبي عن الإيمان غــير مُقلّب

وان امْرأ وارَى البقيعُ عظامَـــه
لفي زُمرة تُلقَى بسهْـــل ومرحَب

وفي ذِمَّة من خير من وطىء الثَّرى
ومن يعتَلِقْه حبلُـــه لا يُعذَّب

وما لي لا أشري الجنـــان بعزمة
يهون عليها كلّ طـــام وسبْسَب

وما ذا الذي يثني عِناني وانـــني
لَجوَّابُ أفاق كثـــير التقلّـــب

أفقْرٌ فَفِي كفِّيَّ لله نعمـــــةٌ
وبَيْنٌ فقد فرَّقتُ بين بَني أبي

وقد مرَنَتْ نفسي على البُعْدِ وانطوتْ
على مثْل حدّ السَّمهَرِيِّ المُدَرَّب

وكم غُربةٍ في غيْر حق قطعتُها
فهـــلاَّ لذاتِ الله كان تغـــرّبي

وكم فازَ دُوني بالذي رُمتُ فائزٌ
وأخطـــأني ما نالـــه من تقَرّب

أراهُ وأهوَى فعلَه البِرَّ قاعـــداً
فيا قعديَّ البِرَّ قُمْ وتلَبَّـــــب

أمانيُّ قدْ أفنَى الشبابَ انتظارُها
وكيف بمـــا أعيا الشبابَ لأشْيَب

وقد كنتُ أسري في الظلام بأدْهَم
فها أنا أغدُو في الصباح بأشهَب

فمَن لي وأنىَّ لي بريــح تحطّني
إلى ذِرْوة البيت الرَّفيــع المُطنَّب

إلى الهاشمِيِّ الأبطــحي محمــد
إلى خاتِم الرّسل المكين المُقَرَّب

إلى صَفْوة الله الأمــين لوحْيِه
أبي القاسم الهادِي إلى خير مَشْعَب

إلى ابن الذَّبِيحيْن الذي صِيغَ مجدُه
ولمَّا تُصَغْ شمسٌ ولا بدرُ غَيْهَب

وقد أطلْنا بما أوردناه من طالعة هذه القصيدة ، وقصدُنا أن ندلّ على عارضة صاحبها وقوته في التعبير عن أغراضه وما يجول في ذهنه من المعاني. وكم وددنا لو قدمنا أمثلة أخرى منها ، ولكن ضيق المجال ، مع ما يقتضيه التمثيل من الوقوف ولو قليلاً على مضامينه الرائعة يمنعنا من ذلك .

ونظنّ أننا في غير حاجة إلى ذكر قصيدتي البردة والهمزية للبُوصيري ، فإنهما لشهرتهما لا يخفى أمرهما على أحد . ولعلنا نعود إليهما في غير هذا الباب .

ونكتفي بهذا القدر من المديح النبوي لنرقى إلى سدرة الثناء

على الله عز وجل بما هو أهله ، وشُكْرِ آلائه والتعرّض لنفحاته القُدسية ، فإن للفقهاء في ذلك شعراً بليغاً مصدره حرارة الايمان وصدق العبودية وقطعُ اللحظ عمّا سواه تعالى وهو مقصد قلما يلمّ به غيرهم من الشعراء ، ولا يقع في كلامهم الا ندوراً وعلى سبيل الاستطراد .

فمن أحسن ذلك قول محمود الوراق :

إذا كان شكري نعمةَ الله نعمةٌ
علي له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغُ الشكر إلا بفضله
وإن طالت الأيام واتّصل العُمْر
إذا مسّ بالسراء عمّ سرورُها
وان مسّ بالضراء أعقبها الأجر
فما منهما الاّ له فيه نعمة
تضيق بها الأوهام والسر والجهر

وقوله :

إلهي لك الحمد الذي أنت أهلُه
على نِعَم ما كنت قط لها أهلا
متى زدتُ تقصيراً تزدني تفضلا
كأنيَ بالتقصير أستوجبُ الفضلا

ولأبي القاسم السهَيْلي صاحب كتاب الروض الانف :

صرفتُ إلى رب الأنـــام مطـــالبي
ووجهت وجهي نحـــوه ومآربي

إلى الملك الأعـــلى الذي ليس فوقه
مليك يُرجَّى سيبُــه في المساغب

إلى الصمـَّد البرّ الذي فاض جوده
وعم الورى طرا بجــزْل المواهب

مُجيري من الخطب المَخُوف وناصري
مُغيثي إذا ضاقت عليَّ مــذاهبي

مُقيلي إذا زلـّت بي النعـــل عاثراً
وأسمحُ غفّـــار وأكرمُ واهب

فما زال يُوليني الجميــل تلطفــاً
ويدفع عني في صـــدور النوائب

ويرزقني طفلاً وكهــــلاً وقبلها
جَنيناً ويحميني دَنِيءَ المكاسب

إذا سدّت الأملاك دونيَ بـــابَهـــا
ونهْنَه عن غِشْيانهم زجرُ حاجب

فزِعتُ إلى باب المهيمن ضارعـــاً
مُدِلاّ أنادي باسمه غيرَ هائب

فلم ألفِ حجَّاباً ولم أخشَ منْعَه
ولو كان سُؤْلي فوق هام الكواكب

كريم يُلبّي عبدَه كلما دعا
نهاراً وليلاً في الدجى والغياهب

يقول له لبيك عبديَ داعياً
وان كنتَ خطّاءً كثيرَ المصائب

فما ضاق عفْوي عن جريمة خاطىء
وما أحدٌ يرجو نوالي بخائب

فلا تخْشَ إقلالاً وإن كنت مكثراً
فعُرفي مبذولٌ إلى كل طالب

سأسألُهُ ما شئت إنَّ يمينَه
تَسحّ دِفاقاً بالمُنَى والرغائب

فحَسْبي ربّي في الهزائز مَلْجَأ
وحِرزاً إذا خِيفت سهامُ النوائب

وفي معنى قوله إذا سدّتْ الأملاك دوني بابها قولُ المكودي صاحبُ المقصورة آنفةِ الذكر :

إذا عرضتْ لي في زمانيَ حاجة
وقد أشكلتْ فيها علي المقاصد

وقفتُ بباب الله وقفةَ ضارع
وقلتُ إلهي إنـني لك قاصـد

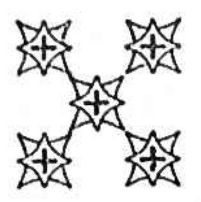
ولستَ تراني واقفاً عند باب مَن
يقول فتاه سيدي اليومَ راقـد

وللشيخ مصطفى البابي الحلبي المتوفى سنة ١٠٩٠ :

يا حيّ يا قيّوم قـد بَهر العقوَل سنا بهائِك
أُثني عليك بمـا علمـ ـتُ وأين علمي من ثنائِك
هوَت المشـاعرُ والمـدا رك عن معارِج كبريائـك
مُتحجّبٌ في غيبك الأحمـ ـى منيع في عَلائـك
عجباً خفاؤُك من ظهو رك أم ظهورُك من خفائك
ما الكون إلا ظُلمـةٌ قبَس الأشعةَ من سنائك
وجميعُ ما في الكون فا نٍ مستمدٌ من بقائـك
بل كل ما فيـه فقيـ ـر مُستميح من عطائك
مـا في العـوالم ذرَّةٌ في جنْب أرضِك أو سمائك
إلا ووجهَتُـها إليـ ـك بالافتقار إلى غَنائك

والثناء على الله عز وجل والتعلق به وسُؤاله باب واسع في شعرهم ، وهو على كل حال قِمّةُ شعر المدح وذِرْوَتُهُ وسنامُه . وقد رأينا أنّه كبقيّة أغراض المدح الأخرى لا

يقصُر عن أقوال فحول الشعراء في هذا الباب ، فأصحابنا الفقهاء أحْرِياءُ أن يرفعُوا به الرأس لرِفْعة شأنه شكْلاً وموضوعاً .



الفقهاء وإن تحصّنوا بالعلم وتأدبوا بالدين ، فإنما هم بشر من الناس تُساوِرُهم نزواتُ الشرّ ، وتَستفزّهم أهواءُ النفس فيُبغِضون ويَثُورون ، وتنشأ بينهم الحَزازات ، فيتراشَقُون بسهام النقد والتجْريح ومَن كان منهم يقول الشعر لم يمْلِك أن لا يتنفّس ببضعة أبيات في هجاء خصمه، منشداً بلسان حاله قول الشاعر الحماسي : وعلى م اركبه إذا لم انزل ؟..

وقولنا ببضعة أبياتٍ يعني القِلّة ، فمن الملاحظ أن شعرهم في هذا الباب قليل . ومع قِلّتِه فإنه لا يسلك سبيل الفُحْش ولا يتورّط في السِّباب ، وفي الغالب يلجـأ إلى التعريض والكناية ، فلا يُجاهِرُ بالعيب ولا يُصرّح باسم المهجوّ ومِن ثمّ كانت أشعارهم في الهجاء انمـا هي أبيات ومقطعات لا قصائد مطولات على المعهود في شعر الشعراء الذين تعاطوا هذا اللون من الانتاج الشعري .

والواقع أنّ الهجاء بهذا الشكْل يُكوّن فنّاً من القول عرفتْه سائر الآداب العالمية من قديمة وحديثة ، بخلاف الهجاء الذي يُغْرِقُ في الطعن ويبالغ في التقوّل ، ويتّخذُ من الفُحش وسيلة لتحطيم الشخص المهجُوّ ، فإنه أبعد ما يكون عن الأدب والفن ، وتصنيفُه مع الأغراض الشعرية إنما هو على سبيل التجاوُز والاعتداد بالشكل أكثرَ من المضمون.

ولهذا كثيراً ما ندّد به النقاد واستبعده مؤرّخو الأدب من حظيرة الشعر العربي ، وصار اليوم في عِداد الأغراض الشعرية المنقرضة أو التي أشرفت على الانقراض ، فقلّما نجد في ديوان مُحدَث في غرض الهجاء شيئاً يذكر ألا أن يكون نظماً قليلاً على نحو ما ألمعنا إليه وعلى سبيل الكناية والتعريض ، بحيث انما يتعلق النظر منه بالتعبير الأدبي الذي يكون هو مَناطَ الاعجاب ، وأما التشنيع بشخصية المهجو فإنه آخر ما يخطُر بذهن القارىء أو السامع . ومن هنا تظهر حَصافَةُ أصحابنا الفقهاء وسَبْقُهم الأدبي ان صح التعبير إلى تمحيص حقيقة الفن وعدم خلْطهم بين الأغراض الشعرية الحقيقية وما حُمِل عليها تهْريجاً وتضليلاً وذلك ما يجعلُ أدبهم مثالاً يُحْتَذى ومِنْوالاً يُنسَج عليه لو كان هناك انصاف ، لا مَحَلّ زِراية وتنكيت كما يجري على الألسنة . فممّا نرويه من ذلك قولُ الامام الشافعي فيمن دعا عليه بالموت :

تمنّى أُناسٌ أن أموت وإن أمُتْ
فتِلْكَ سبيل لستُ فيها بأوحَد

وقد علِمُوا لو ينفع العلمُ عندهم
لئن متّ ما الداعي علي بمُخْلَد

وقد يسبقُ الداعي إلى ما به دعا
فلا يأمنَنْ الاّ يكون هُو الرَّدِي

ويُقال ان صاحبه المَعْنيَّ في هذه الأبيات هو أشْهَبُ الفقيه المالكي المعروف ، فانظر كيف لم يُسمّـِه ولم يقل فيه شيئاً يُكرَه إلا ما هو من قبيل المُسلّمات ، ولا غَرْوَ فقد كان شريكَه في الأخذ عن الامام مالك ، وكان أحدَ الأعلام ، فإن يكن ما نُسِب اليه حقاً فهو مما يكون بين أهل الفضل والكمال من المنافسة التي يقتضيها الاحتكاك ، والمُعاصَرة حجابٌ كما يقولون ، ومع ذلك فما زاد الشافعي رحمه الله على القول بأن الموت سبيل الجميع وانه ان يمت فإن الداعي عليه لن يخلد ولربّما سبقه إلى الموت ، فإن الأجل من المُغيّبات التي يجهلها الناس وهو لا يزيد ولا ينقص بالدعاء والتمني ، وهذه كلها حقائق معلومة لكل واحد من الناس ، لا تَنالُ شيئاً من سمعة أشْهب ولا تقدح في شخصيته بوجه من الوجوه فإن سمينا الأبيات التي تضمنتها بهجاء فإنما ذلك لأنها خرجت مخرج الانتصار للنفس والرد على الخصم كما يكون الهجاء غالباً .

ومن قول أبي العباس بن سُريْج الفقيه الشافعي المشهور :

ولو كلَّما كلبٌ عوَى ملتُ نحوَه
أجاوبه ، إنَّ الكلابَ كثير

ولكن مُبالاتي بمَن صاح أو عوَى
قليل لأني بالكلابِ بَصير

وهذان البيتان ان كانا في غير المستوى الخلقي الرفيع لأبيات الشافعي ، فهما لا ينزالان إلى ميدان المُهاترَة ومجابهة الخصوم ، وإنما يكتفيان بنوع من التعريض ، فيه احتقارٌ وفيه تَعالٍ ، ولكنه لا تشهيرَ فيه .

ولِمُنْذِرِ بن سعيد الفقيه الأندلسي الكبير يذم المتعصّبين من الفقهاء :

عَذيريَ من قوم يقولون كلما
طلبتُ دليلاً هكذا قـال مالك

فإن عدتُ قالوا هكذا قـال أشهبٌ
وقد كان لا تَخفى عليه المدارك

فإن زدتُ قالوا قال سَحنُون مثلَه
ومَن لم يقل ما قاله فهوَ آفِـك

فإن قلتُ قال الله ضجّوا وأكثروا
وقالُوا جميعاً أنت قِرْنٌ مُماحِك

وإن قلتُ قد قال الرسول فقولُهم
أتتْ مالكاً في ترْك ذاك المسالك

وهي أبيات فريدة في نقْد التعصب المذهبي بطريقة الحِوار من غير أن يَحيف القائل فيها على مُناظِرهِ ، وإنما يحكي

قولـه مُجرّداً عن كل تعليق ، ولربما كان فيه تهجّم عليه ولكنه لا يقابله بمثله ، وذلك أدعى للانصاف وتقرير الحق وترك القارىء والسامع يعترفان به لمن هو له ، فأي كلام مُهذّب يعلو على هذا الكلام ، وهو بعدُ في سياق الذم لحطة هؤلاء القوم أي في هَجْوِهم بصريح العبارة ؟

وقارنْ بين هذه الأبيات وأبيات الشاعر أبي بكر بن الأبيض في الموضوع وهي قولـُه :

أهـلَ الرياء لبستُمُ ناموسكم
كالذّيب يختلُ في الظلام العاتـم

فملكتُمُ الدنيـا بمذهب مالك
وقسَمْتمُ الأمـوال بابن القاسـم

وركبتمُ شُهْب البِغَـال بأشهب
وبأصبَغٍ صُبِغت لكُمْ في العالَم

تجدْ بينهما بوْناً بعيداً في الترفع عن العبارات النابية والاتهامات الرخيصة التي اشتملت عليها هذه وسَلِمَتْ منها تلك مع أن المَعْنيـيّن بالأمر هم بالذات نفسُ الفقهاء المالكية الذين كانوا بالأندلس ، والشاعِران كلاهما من نفْس الاقليم ولكن كلَّ يُنفِق مما عنده ، فذلك أدب الفقهاء وهذا أدب الشعراء ، وكل يعمل على شاكلته .

والنُحاة كالفقهاء لهم مذهب سلَفي ورواية يُرَجّحونها على الرأي ، ولنستمع إلى ما قاله اليَزيدي ، أحدُ أيمتهم من المدرسة البصرية المُحافِظة ، في هجْو الكسائي وأشياعه من نُحاة الكوفة ، الضالعين مع الرأي والاجتهاد :

كُنَّا نقيسُ النحوَ فيما مضى على لسان العَرب الأوّل
فجاءَ أقوامُ يقيسُونَه على لُغَى اشياخ قُطْرَبُّل
فكلّهم يعمل في نقْضِ ما به يُصان الحق لا يأتـــلي
إن الكِسائيَّ وأصحابَه يَرقَوْن في النحو إلى أسفَل

وما أحسن تعبير الرقي إلى أسفل ، فإنه من التخيلات الأدبية البارعة ، وكذلك القياس على لغة أهل قُطربّل وهي قرية شَماليَّ بغداد اشتهرت بخمرها ، وكانت مثابة لأصحاب اللهو والبطالة فإن فيه سخرية لاذعة من القوم ومع أن مضمون الأبيات هو الدفاع عن قضيّة علميّة مُحِقّة ، فإن غرض الهجاء فيها لا يتسم بفحش ولا يسفل إلى سباب . وبالرغم من ذلك فإن لليزيدي قصيدةً في رثاء الكسائي لما مات هو ومحمد بن الحسن الفقيه صاحبُ أبي حنيفة في يوم واحد ، وذلك مما يدل على سلامة صدره ، وأنه لما قال فيه ما قال انما غضب للعلم وانتصر للعربية فرحمة الله عليهم جميعاً .

والأطباء لهم كذلك في هذا المجال ذكرٌ ، فمِن قول

أحدهم وهو جرجيس الأنطاكي يهجو أبا الخير اليهودي المتطبّب :

إن أبا الخير على جهلـــه يخِفّ في كِفّته الفاضل
عَليلُه المِسكينُ من شؤمه في بحر هُلْك ما له سَاحِل
ثلاثةٌ تدخل في دَفْعة طلعتُه والنعشُ والغاسِل

قال ابن القِفْطي : وهو من أحسن ما سمعته في هجو طبيب مشؤوم .

ولسديد الدين بن رقيقة في طبيب قبيح الوجه :

قالوا خليقٌ بالطبيب بــأن يُرى
بالطبع يعدم رونقــاً وجمالا
صدَقُوا ولكن لا إلى حدّ به
يُوذِي المَريض ويُفزِع الأطفالا

وله أيضاً في طبيب غير مُوفّق العلاج :

أيا فاعــلاً خل التطبب واتئد
فكم تقتل المرضى المساكين بالجهل
فتركيب أجسام الأنـــام مؤجّل
فلِمْ ـ لا كلاكَ الله ـ تعجَلُ بالحلّ ؟

كأنك يا هذا خُلِقْتَ موكَّلاً
على رجْعِ أرواحِ الأنام إلى الأصل
بَهرْتَ الوبا إذ كان قتلُك دائماً
وذلك في الأحيان يحدُث في فصْل
كفى الوَصِبَ المسكين شخصُك قاتلاً
إذا عُدتَه قبل التعرّض للفصل

وللبديع الأسطُرلاّبي يهجو فاصداً :

وفاصد مِبضَعُه مُشرَع   كأنه جـــاء إلى ضَرْب
فصدٌ بلا نفع فما حاصل   غيرُ دم يخرج من ثُقْب
لو مرّ في الشارع من خارج   لمات مَن في داخل الدَّرب
خُذْه إذا جاشَتْ عليكَ العدا   فوَحْده يغنيك عن حَرْب

إن هذه القطع كلها مليئة بالنكت غنية بالنوادر تَشِف عن روح خفيفة وطبع مَرِح . وهي بالصور الكاريكاتُورية أشبَهُ منها بشعر الهجاء في مفهومه المعهود الذي يُشنّع بأخلاق المهجوّ ، ويقعُ في عِرْضِه ويجعلُهُ مُضْغَةً في الأفواه ولا غَرْوَ فإن أصحابها من أهل العلم ، وأدبهم هو الأدب الذي يتحكّمُ فيه العقل والذوق السليم .

ومن لطائف الهجاء قولُ أبي سعيد العُقَيلي في أبي بكر الصّولي الكاتب ، وكان له خزانةُ كُتُب قيّمة :

إنما الصّوليّ شيخ أعلَمُ الناس خِزانه
إن سألناه بعلم طلَباً منه إبانه
قال يا غِلْمَان هاتُوا رَزْمَةَ العِلم الفُلانه

ومن ذلك ما وقع بين الحافظ بن حجر العَسْقلاني وبدر الدين العَيْني وكانت علاقتُهما على غير ما يُرام . فاتفق أن منارة المدرسة المؤيدية بمصر مالت على بُرج باب زويلة . فأكثر الشعراء من القول في ذلك وقال ابن حجر هذين البيتين مُعرّضاً بالعيني :

لِجامع مولانا المؤيد رونق
مَنارتُه بالحُسْن تزهو وبالزَّيْن
تقول وقد مالت على البُرج امهِلُوا
فليس على جِسْمي أضرَّ من العين

وبلغ ذلك العيني فقال وأجاد :

مَنارةٌ كعروس الحسن إذ جُلِيتْ
وهدمُها بقضاءِ الله والقدر
قالُوا أصيبتْ بعَيْن قلتُ ذا غلط
ما أوجَب الهدم إلا خِسَّةُ الحجَر

ولا يخفى ما في قولهما معاً من جمال التورية وحسن التعريض،

مع أن غرض الشعر في الظاهر هو وصف المنارة ومدح بانيها ، وبهذا الاقتدار على الجمع بين غرضين متنافيين وحسن التصرف في ذلك اشتهر هذا الشعر وتناقله الرواة وهو حري بذلك . وقد قال في الموضوع شعراء غيرُ فقهاء أقوالاً لم تشتهر ولم يحفل بها أهل الأدب ، وهذا مما يشهد لأدب الفقهاء بالرجحان ، وينفي عنه وصْمَةَ التخلف في أي ميدان .

ومثال من نقائض العلماء وتهاجيهم بمثالب الجنس والقبيل كما كان يقع بين الشعراء قديماً ، نختم به هذا الفصل ، وهو يتشخص في قول الفقيه عبد الملك التَّجْموعَتي يهجو البربر :

همُ البَرابِرُ لا ترجو نوالَهمُ
وسَلْ من الله تعجيلَ النوى لَهمُ
لا بلَّغ اللهُ قلباً منهم أملاً
وبلَّغ اللهُ قلبي ما نوى لَهمُ

وقولِه أيضاً :

فلو كنتُ في الفردوس جاراً لبربر
لحوَّلتُ رَحْلي من نعيم إلى سقَرْ
يقولُون للرحمن بابا[1] بجهلهم
ومَن قال للرحمن بابَا فقد كفَر

(١) يعني بذلك ما يجري على ألسنة عامتهم من قولهم في مقام التعجب وما إليه : ابابا ربي !

وفي قول العلامة أبي علي اليوسي مجيباً له :

كفى بك جهلاً أن تحن إلى سقر
بديلاً من الفردوس في شر مُستقر
وتجهل معنىً مُستبيناً مجازُه
لدى كل ذي فهم سليم وذي نظر
فإنَّ أبا الإنسان يدعُوه أنَّه
كفيل وقيّوم رحيم به وبَر
ومَن قال للرحمن بابا فقد عنَى
به ذلك المعنى المجازَ وما كفر
وقد قال عيسى انني ذاهبٌ إلى
أبي وأبيكم جاءَ ذلك في الأثر

وقد اخترتُ هذا المثال من شعر المغاربة ترويجاً لأدبهم وتوقيفاً على ما لهم من الرسوخ في المعرفة باللغة العربية حتى ولو كانوا ممن ينتسبون إلى البربر كصاحبنا اليوسي ، فهو بجزالته وتعمّقه في علم البيان لا يقلّ عن التجموعي في صنعته وبديعه . وبيت القصيد أنهما معاً فقيهان أديبان وأدبهما مما لا مطعن فيه ولا مأخذ .

وسبيلُ الفقهاء في الرثاء هو سبيلُهم في المدح ، إنما يَرثُون من يحظى بحبهم وتقديرهم كذَوي قُرباهم ومَشْيَختهم من أهل العلم والدين ، أو مَنْ يُحقّق مراد الشرع في إعلاء كلمة الله ونشر ألوية العدل والسلام بين الناس من القادة والملوك المصلحين . فرثاؤهم ينبعث عن عاطفة صادقة ولا يكون مُجاملةً ولا تكلّفاً . حتى إن أحدهم وهو الشيخ رضوان الجَنْوي قال في أبيات له مُعيّناً من يستحق الرثاء من الأموات :

إذا شئتَ أن ترثي فقيداً من الورى
وتندُبَه بعد النبي المكرَّم

فلا تبكين إلا على فقد عالم
يبادر بالتفهيم للمتعلم

وفقدِ إمام عادل قام ملكُه
بأنوار حكم الشرع لا بالتحكّم

وفَقْد شُجاع صادق في جهاده
وقد كُسِرتْ راياتُه في التقدم

وفقد كريم لا يملّ من العطـا
ليُطفِيء بؤس الفقر عن كل مُعدِم

وفَقْد تقي زاهــد متــورع
مُطيع لرب العالمــين مُعظّم

فهم خمسةٌ يُبكَى عليهــم وغيرُهم
إلى حيثُ ألقت رحلَها أمّ قَشعم

وتردّد تعيينُ هذا العدد في أبيات أخرى لغيره . وبعضُهم اقتصر على ثلاثة من الخمسة : وهم العالم والشجاع والجواد . والواقع أن هؤلاء الأصناف الخمسة هم أكثر من تتناوله المَرْثاة العربية باطلاق ، سواء كانت للفقهاء أو لغيرهم ، إنما إذا غلب على مراثي الشعراء أن تكون في الملوك والقادة والأجواد ، فإن مراثي الفقهاء أكثر ما تكون في الصِّنْفين الباقيين أعني العلماء والزهاد .

والمُهِمّ هو طريقةُ التناول ، فقد اشتهر أن بعضَ الشعراء سُئِل : لِمَ كانت أمداحُكم أجودَ من مراثيكم ؟ فأجاب : لأننا إذا مدحنا قلنا على الرجاء ، وإذا رثَيْنا قلنا على الوفاء ، وبين الباعثين بَوْن ، وهذا الكلام إن صحّ تنزّلُه على الشعراء ، فإنه لا يتنزّل على الفقهاء ، لأن أمداحهم كما رأينا في باب المدح ليس باعثُها الرجاء ، وهي لا تقِلّ جودة عن أمداح الشعراء فكذلك مراثيهم ليس باعثُها الوفاء فقط ، ولكن

الايمان بشخصيّة المَرثيّ والشعورُ بعِظمَ الفاجعة فيه ، فهي لا بد أن تجُودَ كما جادت الأمداح ، ولا تضعف لضعف الباعث كما قال هذا الشاعر .

هذا ولما كانت التعزية من الرثاء وهي سابقةٌ والرثاء لاحق ، رأينا أن نقدم أمثلة من قولهم فيها ثم نعقب عليها بأقوالهم في الرثاء .

فمن ذلك ما كتب به الحسن البصري إلى عُمر بن عبد العزيز تعزيةً في ابنه عبد الملك :

وعُوّضت أجراً عن فقيد فلا يكُن
فقيدك لا يأتي وأجرُك يـذهب

وكتب ابنُ عبد الحكَم الفقيه المصري إلى الامام الشافعي يعزّيه في ميت له :

إنّـا معزّوك لا أنّا على ثقـة
من البقـاء ولكن سُنّةُ الـدين

فما المُعزّى بباق بعد ميّتـه
ولا المُعزّي ولو عاشـا إلى حين

وهذان البيتان نُسِبا لغير واحد من قالَة الشعر ومن المتمثلين بهما ، والأشبه أن يكونا لفقيه مثل ابن عبد الحكم ، فإن

نفَسَ عالم الدين يلوح عليهما ، وكذلك رأيناهما منسوبين اليه تعزية للشافعي بخط أحد العلماء الأثبات .

ولما نُعِيَ الحافظ الدارمي إلى البخاري أنشد مُعزّياً فيه نفسَه :

إن عشتَ تُفجَع بالأحبة كلهم
وبقاءُ نفسك لا أبا لك أفجعُ

وكتب القشيري تعزيةً في شيخ الاسلام أبي عثمان الصابوني :

وقالوا الامــامُ قضَى نحبْــه
وصيحــةُ من قد نعــاه علَتْ

فقلتُ فما واحد قــد قضَى
ولكنــه أمــةٌ قــد خلَتْ

وكتب الصاحب أمين الدولة إلى الوزير بُرهان الدين يعزّيه في ولده :

قُولا لهــذا السيد الماجــد
قولَ حـزين مثلــه فاقـد

لا بدَّ من فقْــد ومن فـاقِد
هيهاتَ مــا في الناس من خالد

كُنِ المعزّى لا المُعزّى به
ان كان لا بد من الواحد

وللقاضي شهاب الدين بن الفضل يُعزّي تقي الدين السبكي في والدته :

كلّ امرىء منا سيلقَى الردَى
بِذمّه ان شاء أو حمْده

فاسمع أبا الفتحِ وُقيتَ الردى
ولا استطرتَ النار من زَنْدِه

مثلُك من يلقى الردى صابراً
محتسباً للأجر في فقْدِه

فقدتَ أماً برَّة لم يزَل
كوكبُها المُشرِق في سعْدِه

ماتت وأبقتْ منك فينا فتى
كمثل ماء الوَرْد من ورْدِه

ولأبي سالم العياشي مُعزّياً بفقد النبي (ص) :

وما نحن إلا عُشْبةُ الموت أُنبِتت
بأرض الردى فالنبْتُ ذاوٍ ومُحْصَدُ

ولو كان حيٌّ يستجازُ بقاؤُه
لكان به أولى النبيّ محمّدُ

ومثله قول بعض العلماء :

فلو كانتِ الدّنيا تدومُ لأهلها
لكان رسولُ الله حيّاً وباقِيا

ولما مات العلامة عبد القادر بن شقرون من علماء فاس قال الناس قد ذهبَ العلم ، فأنشد سليمان الحوّات هذين البيتين :

يقولُون ان العلم غاضَت بحارُه
وأصبح هذا الغرْبُ من أهله قَفْرا

فقلتُ لهم في التاوُدِيٍّ بن سُودَةَ
وأعقابِه ما يملأ البَرَّ والبَحْرَا

وهي تعزية بمَن بقي عمّن ذهب ، وفيها غاية المدح للشيخ التاودي بن سودة ، وكان شيخ الجماعة في وقته ، فهو جدير أن يتعزّى به الناس .

وهذه التعازي على اختلاف مراتبها في الإحسان تُضاهي أحسن التعازي التي تتضمنها كتب الأدب لفحول الشعراء ،

ففيها ما تغلب عليه النزعة الدينية من التّرغيب في الأجر والحث على الصبر ، وما تتخلله النظرة الفلسفية للموت ، وما يتردد فيه نفَسُ الشعر الجاهلي ، وكذلك هي تعازي الشعراء من غير الفقهاء على اختلافٍ في الصياغة وتفاوُت في درجات الإحسان .

وأما المراثي التي قالها أدباء الفقهاء على الوجه الذي ذكرنا فإنا نأتي منها بأنماطٍ مختلفة تُنبِىءُ عن قوة عارِضَتهم وتَفنّنهم في هذا الغرض ، وإن كنا سنجتزىء بالقليل عن الكثير ، لأن تتبع ذلك يطول .

فمن مرثية لمحمد بن عبد الرحمن البغدادي المعروف بأبي الحسن الصالحي في الإمام مالك :

سقى الله ما ضمّ النبيّ محمداً
من الأرض ما يسقي الغمامُ الهوامعُ
وجاد لِقَبْر فيه أكفان مالك
أفاوِقُه والمُسْبَلاتُ الدوافع
فنِعْم إمامُ العلم والكوكب الذي
أتى نورُه في صفحة الدّين ساطع
عَقِيد الهُدى فينا ومصباح ديننا
ومَن قولُه بالحق والرشد واقع
ومَن عُرْوةُ الإسلام في بطن كفه
هي العروةُ الوُثْقَى وبالنصح صادع

فإن لم تكن فيما قضى اللهُ صاحباً
فإنك للأمّي بالحق تابع

أقمتَ لنا دين النبي محمد
وجارَيْه والصِّهْرَيْن مُذْ أنت يافع

وعِلْمُك أعلى العلم فرعاً ومخْرَجاً
كذا كل علم دونه متواضع

لعمري لقد أورثتنا العلم خالصاً
وقد أوحشت منك الديار البلاقع

نقلتَ إلينا عن مصابيح ديننا
بتوفيق ربٍّ فضلُ جَدْواه واسع

فإن لم تكن فينا فعلمُك بيننا
نُدافع عنه من جفَا ونصارع

بكل بيان من كتاب وحجة
لها من قلوب المؤمنين مَواقِع

ستبكيك أرضُ الناس والناسُ فوقها
وتبكيك في الجو النجوم الطوالع

ولابن دُرَيْد في الإمام الشافعي مرثية من هذا البحر وهذه القافية يقول فيها :

أَلَمْ تَرَ آثارَ بنِ ادريس بعــده
دلائلُها في المشــكلات لَوامِــع

مَعالِمُ يفنَى الدهرُ وهي خوالد
وتنخفض الأعلامُ وهي فوَارع

مناهجُ فيها لِلهُدَى متصرَّف
مَوارِدُ فيها للرشـــاد شرائــع

ظواهرُهـــا حُكْم ومُستنبطَاتُها
لِمَا حكَم التفريقُ فيه جوامع

لِرأيِ ابن ادريس ابن عم محمد
ضياءٌ إذا ما أظلم الخطب ساطع

إذا المعضلاتُ المشكلات تشابهــا
سمَا منه نورٌ في دُجاهُنَّ لامع

أبَى اللهُ إلا رفْعَه وعُلـــوَّه
وليس لِمَا يُعليه ذو العرش واضع

تسرْبَل بالتقوى وليـــداً وناشئاً
وخُصَّ بِلُبِّ الكهل مُذْ هُوَ يافِــع

وهُذِّبَ حتى لم تُشِرْ بفضيلة
إذا التُمِسَتْ إلاَّ إليه الأصابِــع

فمَن يكُ علمُ الشافعي إمامَــه
فمَرْتَعهُ في بَاحةِ العلم واسع

سلامٌ على قبْر تضمَّن جسمَه
وجادتْ عليه المُدجناتُ الهوَامع

لَئِن فجَعتْنا الحادثاتُ بشخصه
لَهُنَّ لمــا حكَّمن فيه فواجِع

فأحكامهُ فينــا بدُورٌ زَواهــرٌ
وآثارُه فينــا نجوم طوالــع

ولابن دُرَيْد أيضاً يَرثي الإمام محمد بن جرير الطبري ، من قصيدة طويلة :

أوْدَى أبو جعفرٍ والعلــمُ فاصطحبا
أعظِمْ بذَا صاحباً او ذاكَ مصْحُوبا

إن المنية لم تُتلِف بــه رجلاً
بل أتلفتْ علَماً للدين منصُوبا

كان الزمانُ به تصفو مَشارِبهُ
فالآن أصبحَ بالتَّكْدِير مَقطُوبا

كلاَّ وأيامه الغُرّ التي جعلت
للعلم نوراً وللتقوى محَاريبــا

لا ينسَري الدهرُ عن شِبْهٍ له أبدا
ما استوقف الحجّ بالأنصاب أركُوبا

تجلو مواعِظُه رينَ القلوب كما
يجلُو ضياءُ سنَا الصبح الغَياهيبا

وَدَّتْ بقاعُ بلادِ الله لو جُعِلت
قبْراً له فحباها جسمُه طِيبا

ورثاءُ ابن دريد لهذيْن الإمامين دليل على ما قلناه من أن مراثي العلماء إنما تكون لأمثالهم من أهل العلم والدين ، وباعثها حينئذ هو التقدير والاعجاب والاعتراف لهم بالجميل لما أسدوْه للأمة من خدمة عظيمة في هدايتها إلى معالم الرشد وفتح أعينها على مصادر النور ، وبذلك يكون الرثاء صادراً عن شعور عميق بالفاجعة ومصوراً للفراغ الهائل الذي يتركه هؤلاء الأعلام الراحلون في حياة الأمة العِلْميّة والدينية إذْ قلّما يُخلّفون وراءهم من يَسُدّ مَسدَّهم ويفْري فريّهُم .

وقال اليزيدي يرثي الكسائي ومحمد بن الحسن صاحبَ أبي حنيفة وكانا قد خرجا مع الرشيد إلى خُراسان فماتا في يوم واحد بالرّيِّ ، وصلّى الرشيدُ عليهما وقال دفنتُ الفقه والنحو في الرّيّ ، وهذا رثاء اليزيدي فيهما :

تصرَّمت الدنيا فليس خلُودُ
وما قد ترى من بهجة سيَبيدُ

سيُفنيك ما أفنى القرونَ التي خلت
فكُنْ مُستعداً فالفنـاء عَتيد

أسِيتُ على قاضي القضاة محمد
فأذْريتُ دمعي والفؤاد عميـد

وقلتُ إذا ما الخطبُ أشكلَ منْ لنا
بايضاحـه يومـاً وأنتَ فَقيد

وأقلقني موتُ الكسائيِّ بعـده
وكادت بيَ الأرضُ الفضاءُ تميد

وأذهلني عن كل عيْشٍ ولـذة
وأرَّقَ عيـني والعيونُ هجُود

همُا عالِمانَا أوْدَيا وتخرّمـا
وما لهما في العالَمين نَـدِيـد

فحزْنِيَ إن تَخطرْ على القلب خَطْرة
بذكرهما حـتّى المَـات جديدُ

وهذه الأبيات فيها من حرارة العاطفة وجَوْدة التعبير ما يُغبّر في وجه كل من يُضعّف شعر العلماء ، ولا نشير إلاّ إلى البيت الأخير الذي يتمثّل فيه الصدقُ الفنيّ بأحسن لفظ وأجمل معنى . فهو يُبرزُ حزنَ الشاعر على الفقيديْن ويجعله مرتبطاً بالقلب ، ولا يُطلِقُه اطلاقاً وانما يُقيّده بحالة الذّكْر

وعدم شرُود الفكر ، ففي هذه الحالة ، وهي التي تُطابق الطبيعةَ البشرية ، إذا خطَرتْ على قلبه خَطْرةٌ من ذكر صاحبَيْه يتجدَّد حزنُه ويكون كأنما فقدَهما لِتوّه وساعته ، وذلك مدى العُمر وإلى نهاية الحياة . ولا أصدقَ من هذا الشعور ولا أبلغ من هذا التعبير .

ومن مراثي العلماء الشهيرة مرثية أبي الحسن بن الأنباري في الوزير أبي طاهر محمد بن بَقية لمّا صلَبه عضُدُ الدولة ابن بُوَيْه ومطلعها :

علُوٌّ في الحياة وفي الممات
لَحقَّ تلك إحدى المعجزات

وكان ابنُ الأنباري هذا فقيهاً صوفياً واعظاً يتعاطى الأدب ، فلذلك ذكرناه مع أدباء الفقهاء ، ومَرثيتُه هذه إحدى ثلاثِ مراثٍ أو أربعٍ في اللغة العربية ليس لها نظير ، وقال الصَّلاح الصفدي فيها انه لم يُسمع بمثلها في رثاء مصلوب . وقيل ان عضد الدولة لما سمعها تمنّى أن لوْ كانَ هو المرثيَّ بها ولوْ معَ الصَّلْب . وكفى بهذا تقريظاً لأدب الفقهاء . ونظن أننا في غير حاجة إلى إيراد شيء منها لأنها معروفة وتُوجَد في كل ديوان .

ومن أرق المراثي مرثية الشريف الحصني في ابن مالك النحوي التي يقول فيها :

يا شتاتَ الأسماء والأفعال بعد موت ابن مالكٍ المفضال

وانحرافَ الحُروف من بعد ضبطٍ منه في الانفصال والاتصال

ألَمٌ إعتراه أسكنَ منـــه حركاتٍ كانت بغير اعتلال

يا لها سَكْتَةً لِهَمْز قضاءٍ أورثت طُولَ مدة الانفصال

رفَعُوه في نعشه فانتصبْنــا نصْبَ تمييز كيف سيْرُ الجبال

صرَفُوه يا عُظْمَ ما فعلوه وهو عَدْلٌ مُعرَّف بالجَمال

أدغَموهُ في التّرب من غير مِثْل سالِماً من تغيّر الانتقــال

وهي على هذا المنوال من كثرة التورية بالمصطلحات النحوية التي يُغْرِبُ فيها أحياناً ، ومع ذلك، ومع ما في بعض أبياتها من زحاف ، فإن الصَّفَدي أعْجِب بها وقال : ما رأيت مرثية في نحوي أحسنَ منها على طولها ، وشهادة هذا العالم الأديب لها قيمتها في هذا المقام . ولقد كان من أثر إعجابه بها أن نسج على طرازها قصيدة فائقة رثى بها أثيرَ الدين بن حيّان النحوي الغرناطي المشهور منها قوله :

مات امام كان في فَنّـــــه يُرى أماماً والورى مِن وَرا

أمْسَى مُنادًى للبِلا مُفرَداً فضمَّه القبرُ على ما تَـــرى

يا أسفاً كان هُدًى ظاهراً فعاد في تُرْبَتِه مُضمَــرا

وكان جمْعُ الفضل في عصره صحَّ، فلما ان قضَى كُسّرا

وعُرّفَ الفضلُ به برْهَـــةً والآن لما ان مضى نُكّـرا

وهي طويلة مثل سابقتها ولكنها سالمة من الزحاف ، إلا أنها في معانيها عالة عليها فالفضل للمتقدم على كل حال . ونحن لم نرو هاتين القصيدتين إلا على سبيل الإحماض والمُضاهاة لنظائرهما من نظم الشعراء والا فلا يغيب عنا أن غَرَض الرثاء أبعدُ شيء من هذه الصناعة اللفظية والزخارف الكلامية .

ويحسن أن نختم هذا الباب بمقطّعات وأبيات في الموضوع لأصحابنا الفقهاء بعد أن ألمعْنا إلى المراثي الطويلة ، فإن في بعضها إبداعاً وبلاغة يُستظهرُ بهما عند المقارنة ويكونان حجة على المنكِر . فمن ذلك قولُ القاضي التنوخي :

أنَصُون ماءَ العين مِن بعد امرىء
قد صان منّا في الوجوه الماءَ

يا قبرَه لم تَحْوِ جسماً مَيّتاً
لكن حوَيْتَ مكارِماً أحياءَ

ومنه قول الزمخشري في شيخه أبي مُضَر :

وقائلةٍ ما هذه الدّررُ الـتي
تساقَطُ من عينيك سمْطينِ سمْطينِ

فقلتُ لها الدر الذي كان قد حشَا
أبو مُضَرٍ أذْني تساقَط من عينْي

ومنه قول أبي بكر بن شَبْرين في خامس بني نصْر ملوك غرناطة :

بانَ العزاءُ فما الذي نُبديـه
في الحزْن إلا بعض ما نُخفيه

يا أيها الغادي يحُثّ قلوصَه
إيهٍ عن الخبرَ المُرجّم إيـه

أودى أميرُ المسلمين فكيف لا
نأسى عليـه وكيف لا نبكيـه

قد كان للاسلام عيْنَ بصيرة
فأصابت الإسلامَ عينٌ فيـه

ومنه قول أبي علي اليوسي

مُصابٌ لو ان الأرض نال أديمَها
لما أنبعَتْ نهراً ولا أنبتَتْ زَهْـرا

ولو أن آفاقَ السماء أصَابَها
لما أطلعتْ شمساً ولا أنزلت قَطْرا

هذه نماذجُ وألوانٌ من تعازي العلماء ومَراثيهم. ليس فيها ما يُنتَقدعليهم إلا إذا انتُقِد مثلُه على غيرهم من الشعراء وهي حَريّة

بالاضافة إلى ما قدمناه من أقوالهم في أغراض الشعر الأخرى أن تنفي عنهم تُهمة الضعف في الانتاج الأدبي وتَكُمّ أفواهَ المتقوّلين عليهم المتندّرين بكلمة هذا شعرُ فقيه ، فقد تبين أنها من الكَلِم المُلقاة على العَواهِن بغير نظر ولا تفكير ، وإن يبْغِ عليك قومُك لا يبْغِ عليك القَمر كما يقولُ المثل .

شعر السيَر أو المَلاحِم

هذا فن من الشعر يكاد أدب الفقهاء يمتاز به ، فيدفع الوصمة عن الأدب العربي التي يلصقها به كثير من النقاد حين يتحدثون عن خلوه من الملحمة أو من الشعر القصصي في الجملة ، وهو الشعر الذي حفلت به الآداب الأجنبية ، شرقيها وغربيها وخلد حقباً من تواريخ بعض الشعوب ومواقف بطولية لبعض القادة ، بحيث يُعَدّ نشيد الأنشاد ، وسجل الأمجاد ، في الأوطان التي تعتزّ بما أنتجته قرائح شعرائها الموهوبين منه . وإذا كان بعض الكتاب لا يسلمون بخلو الأدب العربي من هذا اللون من الشعر ، ويلتمسون له جُذُوراً في المعلقات وبعض القصص الشعبية كسيرة بني هلال وسيف ابن ذي يزن ، فإنهم يغفلون عن القصائد الطوال الجياد التي نظمها أدباء الفقهاء في سيرة الرسول (ص) وأصحابه الكرام ، ومنها ما هو في الذروة من الصناعة الشعرية وبلاغة القول حتى أن الأجيال المتعاقبة من لدن قيلت هذه القصائد لم تفتأ تتغنى بها وتنشدها في المحافل التي تقام بالمناسبات المقولة فيها . وتلك مثل قصيدتي البردة والهمزية للبوصيري ، وقصيدة الوتريات للبغدادي ، فهذه القصائد وأمثالها من شعر السير

هي أحق بأن تُصنّف في شعر الملاحم من المعلقات والقصص المذكورة ، لأنها أطول نفَساً وأكثر حوادثَ وأغنى بصور البطولة والكفاح من أجْل اثبات الوجود العربي واعلان رسالة الاسلام المقدسة التي أحلت العرب محل الصدارة بين الأمم ذات التاريخ المشرق والمجد العريق .

وهل تُقاس معلقة عمرو بن كلثوم مثلاً بقصيدة البردة وما اشتملت عليه من فنون القول كالنسيب الذي يُرقّق الطباع ، والحكمة المزكية للنفس ، والاعلان عن مولد صاحب الدعوة الاسلامية (ص) وما صاحبه من الآيات والعجائب ، ما صحَّ منها وما يُروَى عن طريق الرؤى والتجليات ، لأن المقام للخيال الشعري أكثرُ مما هو للتحقيق العلمي ، ثم ذكْر جهاده بعد النبوة لاعلان كلمة الله وما لاقاه من المشركين من مقاومة وأذى ، واستماتة المؤمنين به في نصرته وتأييده حتى علا الحق وانتصر دين التوحيد على خرافات الجاهلية ووثنيتها . واندفع المارد العربي إلى فتوحاته وتوطيد سيادته على العالم بالقوة والعلم والدين الجديد الذي كشف الران عن القلوب وفتح العيون على الحقيقة وهدى الناس إلى الصراط المستقيم . هذه القصيدة العظيمة التي لم يملك أمير الشعراء أحمد شوقي نفسَهُ حتى عارضها بقصيدته نهج البردة ، فجال مثل البوصيري جولات في ميدان الاشادة بالدعوة المحمدية وجهاد المؤمنين من أجل نصرتها ولكن بلغة

العصر وفكرته فكان من ضمن ما قاله فيها مفنداً للمتقولين على مشروعية الجهاد في الاسلام :

قالوا غزوتَ ورُسْلُ الله ما بُعِثَتْ
لقتل نفس ولا جاؤُوا بسفك دم

جهل وتضليل أحــلام وسَفْسطة
فتحتَ بالسيف بعد الفتح بالقلم

لما أتى لك عفواً كلّ ذي خطَر
تكفَّل السيف بالجهــال والعَمَم

والشر ان تلقَه بالخير ضقتَ به
ذرعاً وان تلقه بالشر ينحَسِم

ويقول في حضارة الاسلام ومقارنتها بالحضارات الشرقية والغربية :

واترُكْ رَعمسِيسَ ان الملك مظهرُه
في نَهْضة العدل لا في نهضة الهرم

دار الشرائع رُوما كلمــا ذُكرتْ
دارُ السلام لها ألقت يــد السلم

كيف لا تكون البردة ملحمة شعرية وذلك مضمونها وهذا تأثيرها حتى في أكبر شاعر عربي في عصرنا الماضي ؟

أتكون الالياذة لهوميروس ملحمة لأن بطلها أخيل ، والانياذة لفرجيل كذلك ملحمة لأن بطلها اينياس ، ولا تكون البردة أو الهمزية ملحمة لأن بطلها محمد بن عبدالله ؟..

أخشى أن تكون بدعة فصل الدين عن الدولة تسربت أيضاً إلى الأدب ، وزَلّةُ ابعاد الدين عن القومية شملت حتّى الشعر ولذلك يغض كتابنا نظرهم عن هذه الأعمال الأدبية الرائعة التي تمتّ إلى الدين ، والدين الاسلامي بالخصوص — بصلة أو سبب وهذا بالإضافة إلى تزهيد بعض إخواننا السّلَفيين في هذه القصائد لما تتضمنه من مبالغة غير جائزة شرعاً في بعض المواضع ، تلك المبالغة التي نحملها نحن على توخّي البلاغة كما هي عادة الشعراء لا على مخالفة العقيدة ، أو هي هفوة على كل حال كان من الممكن التجاوزُ عنْها لِقاءَ ما تطفحُ به هذه القصائد من معان سامية ومقاصد شريفة ، حتّى لا يقضي عليها عاملا الافراط والتفريط .

وكيفما كان الأمر فعندنا من هذا الشعر لأدباء الفقهاء قصيدة الشقراطيسية ، ومُطوّلَتَهُ ابْنِ أبي الخصال المسماة بمعْراج المناقب ، وقد سبق الكلام عليهما في باب المدح ، ولامية أبي اسحاق التلمساني التي يقول في مطلعها :

ألا في سبيل الله ما أنــا قائل
ليُجنَى به أمنٌ وفــوزٌ ونائل

وقصيدةُ الوتْريات لابن رشيد البغدادي وهي تسعة وعشرون نشيداً على عدد حروف المعجم بزيادة لام الألف ، في كل نشيد واحد وعشرون بيتاً مع التزام حرف الروي في أول كل بيت ، وأولها من حرف الألف :

أصلي صلاة تملأ الأرض والسما
على من له أعلى العلا مُتَبوَّأ[1]

وقصيدة الوسيلة الكبرى لمالك بن المرحل ؛ وهي كذلك مرتبة على حروف المعجم وملتزمة الابتداء بحرف الروي ، وفي كل حرف منها عشرون بيتاً ، وأولها :

إلى المصطفى أهديتُ غُرَّ ثنائي
فيا طِيب إهدائي وحُسْن هِدائي

ثم قصيدة المعشّرات النبوية له ، وهي على نمط الوسيلة ، إلا أن في كل حرف منها عشرة أبيات فقط ، وأولها وقد التزم فيه الميم ثانياً وقبل الحرف الروي :

أمَا لي إلى قبر النـــبي مُبلّغ
سلاماً فقد أفنى الزمان ذَمائي

وديوان الوسائل المتقبلة لأبي زيد الفازازي ، ويشتمل على قصائد عشرينية بعدد حروف المعجم مفتحة الأبيات بحرف

(١) كتبنا عن البغدادي ووترياته بحثاً ألقي في مؤتمر مجمع اللغة العربية الذي عقد في نوفمبر ١٩٦٥ .

الروي على طريقة اللزوم كسابقاتها وأولها :

أحقّ عباد الله بالمجـــد والعلا
نبيٌّ له أعلى الجنـــان مُبَوَّأ

وهذا الديوان مطبوع مع تخميس له جيد لابن المهيب من علماء الصحراء المغربية .

والملاحظ أن كلاً من الفازازي وابن المرحل وصاحب الوتريات ، من أهل القرن السابع الهجري ، إلا أن أقدمهم وفاة هو الفازازي ، فلا شك أنه مُقتدَاهم في هذه الطريقة من النظم ، لا سيما والبغدادي صاحب الوتريات قد عاش في المغرب وكان قدومه اليه بعد وفاة الفازازي بقليل . فغير بعيد أن يكون اطلع على ديوانِه ، وأنشأ وتْرياته على وِزَانه ، ويظهر ذلك من تشابه المطلعين اللذين أنشدناهما من حرف الهمزة لكل واحد منهما . على أن وتْريات البغدادي أكثر سيرورةً وتداوُلاً بين الأدباء الذين شطروها وخمسوها وعارضوها ولذلك ذكرناها أولاً . زد على هذا أن الفازازي وابن المرحل هما في غالب أمرهما من الشعراء بخلاف البغدادي فهو من الفقهاء والعلماء والوعاظ . ومع ذلك فإن في ذكر قصائد هذين الشاعرين وإن خرجت عن شرطنا ، تنبيهاً للباحثين إلى درسها هي وما ضاهاها من مطولات الأدباء عموماً في هذا الباب عند التعرض لشعر الملاحم في الأدب

العربي .

وفي فنّ المقصورات عندنا مقصورةُ ابن جابر الأندلسي ، وأولها :

بادَر قلبي للهوى وما ارْتـأى
لمَّا رأى من حُسْنِها ما قد رأى

ومقصورةُ الامام الصرصري ومطلعها :

ما بين قُرب وبِعـــاد وقِلى
وبين ليتَ ولعـــلَّ وعســى

ضاع زماني ووهت شبيبـــتي
وصوَّح المُخْضَرَ منها وذوى

ومقصورةُ المكودي وقد سبق الكلام عليها في باب المدح .

ومقصورة النبهاني من أهل عصرنا وأولها :

أحَبّ لي من كل ما فوق الثرى
عُرْبُ النَّقا ، روحي فِدا عُرْبِ النّقَى

وأصحاب هذه المقصورات كلهم من أهل العلم والفقه إلا ابن جابر الذي يغلب أن يعد في الشعراء ، فيقال في ذكر

مقصورته ما قيل في ذكر قصائد من قبله .

وأخيراً لا آخراً عندنا في هذا الباب كذلك ميمية حمدون ابن الحاج المسماة بعقود الفاتحة وهي أطول القصائد التي عرفناها في الموضوع لأنها نحو ٤٠٠٠ بيت وأولها :

هبَّت قَماريُّ بـين البْان والغلم
تُملي شمائل اقمارٍ بـذي سلم

ويطول بنا الكلام إذا حاولنا أن نتعرض لهذه القصائد ، وكلها من ذوات المئات ، بالنقد والتحليل ، ونقارن بينها وبين المعلقات وغيرها ، لنتبين أيها أحق بوصف الملحمة الشعرية في مفهومها الأدبي ، ولكنا نعرض لواحدة منها فقط ، ولْتكُن هي همزية البوصيري ، فنقدمها كنموذج ، ونتناولُها من حيث الشكل والمضمون بشيء من التعليق يقفنا على محتواها وقيمتها الأدبية .

إن همزية البوصيري تتألف من ٤٥٦ بيتاً ، وبذلك تكون وسَطاً بين القصائد التي تُعدّ الفَ بيت فأكثر والتي جاوزت المائة ولم تصل إلى هذا العدد . وهي من بحر الخفيف ، وهو بحر مِطْواع سواء من الناحية العروضية أو الايقاعية ، ولذلك سلمتْ من الحشو في نظمها وخضعت من حيث التلحين لعدة نغمات موسيقية كنغمة الاستهلال والحجاز وعراق

العجم ورمل المایة ورصد الذيل وغريبة الحُسين والمشرقي والاصبهان وغير ذلك . أما قافيتها فهي الهمزة المضمومة ، وقد أشبهت فيها وفي وزنها معلّقة الحرث بن حلّزة ، واقتبس البوصيري منها عَجُزَ مطلعها « رُبَّ ثاوٍ يُمَلّ منه الثواء » وضمّنه بعض أبياته ، وتزيد الهمزية على المعلقة ٣٧٢ بيتاً ، إذ أن عدد أبيات هذه ٨٤ بيتاً فقط .

تبتدىء الهمزية بهذا البيت :

كيف ترقى رقيك الأنبيـــاء   يا سماء ما طاولتها سماء ؟

وهو بيت بليغ جداً ، وإن شئت قلت مبالغ ، فإنه وإن كان يُلمّح إلى قصة المعراج ، إلا أن بعض العلماء يرى ان لو كان لم يتعرض لذكر الأنبياء بهذه الصورة ، لنهيه (ص) عن تفضيله على غيره من الأنبياء ، ومن ثمّ قال العلامة ابن زكري في مطلع همزيته التي عارض بها همزية البوصيري :

ربّنا للنبي منك الجـــزاء   تقتضيه الأرواح والأجزاء

أما النبهاني الذي له أيضاً معارضة الهمزية بمُطوّلة تبلغ ألفَ بيت ، فقد جرى على سَنَن البوصيري إذ قال في مطلعه :

نورك الكلّ والورى أجزاء   يا نبياً من جُنده الأنبياء

ويتمادى البوصيري في مدحه للنبي (ص) على هذه

الطريقة ، طريقة الخطاب والمقارنة متخلصاً بذكر تنقله في الأصلاب الرفيعة والأرحام الطاهرة وبشارة الأنبياء به عَبْرَ العصور إلى مولده الشريف وما ظهر فيه من العجائب .

ليلةُ المَوْلِدِ الذي كان للدِّ ين سرورٌ بِيَوْمِهِ وازْدِهاء
وتوالتْ بُشرى الهَواتِفِ أنْ قد وَلِدَ المصطفى وحقَّ الهنَاء
وتداعَى إيوانُ كِسْرى ولولا آيةٌ منك ما تَداعَى البِناء

إلى غير ذلك من الآيات وكيفية ولادته ، ثم رضاعه في بني سَعْد ، وما رأتهُ مُرضِعَتُه منذ حل في بيتها من الخير والبركة إلى أن فصلته بسبب خوفِها عليه لِمَا وقع له من معجزة شقّ صدره الشريف :

وأتتْ جدَّه وقد فَصَلَتْه وبها من فِصاله البُرَحاء
إذ أحاطتْ به ملائكةُ الله فظنَّت بأنهم قُرَناء
فارَقتْه كَرهاً وكان لديْها «ثاوياً لا يُمَلُّ منه الثَّواء»
شُقَّ عن قَلْبِهِ وأُخرِجَ منه مُضغَةٌ عند غسْلِهِ سَوْداء

ويذكر البوصيري بعد ذلك نشأته المثالية وتأهبه لتلقي أمانة الرسالة وزواجه بالسيدة خديجة بدعوة منها كما يقول ، لما رأته فيه من العفة والنزاهة والحياء ، وكانت ذات خبرة ونظر سديد ، فلما جاءه الوحي وهو في بيتها أرادت أن

تتأكد من أمره فكشفت عن شعرها لأنها علمت من ابن عمها ورَقَة بن نَوْفل ، وكان نصرانياً أن الملائكة لا تحضرُ محلاً فيه امرأة مكشوفة :

وأتاهُ في بيتها جَبْرئيلٌ
ولِذي اللب في الأمور ارْتِياء

فأماطتْ عنها الخِمارَ لتدري
أهُو الوحي أم هو الإغماء

فاختفَى عند كشْفها الرأسَ جبري
لُ فما عاد أو أُعيدَ الغِطاء

فاستبانت خديجةٌ أنه الكنْ
زُ الذي حاولَتْه والكيمياء

ويصف البوصيري قيامَه (ص) بالدعوة ، وما لاقاه من المشركين من التكذيب والأذى ، وتآمُرَهم عليه ، وكتابةَ الصحيفة التي قاطَعَ بها الملأُ من قريش قومَه بني هاشم وبني المطلب ، ثم نقْضها وتردُّدَ أمره بين مكابدة مشاق الدعوة وتربية المؤمنين القلائل الذين اتبعوه ، إلى أن انتشرت دعوته في المدينة المنورة ، ومهّدَ ذلك إلى هجرته إليها ، وهو لا يذكر هذه الأحداث بحسب ترتيبها الزمني بل بحسب المناسبة التي يقتضيها النظم وفنّ القول كأنْ يُشبّه حدثاً بآخر أو

يزاوج بين الأحداث للمشاكلة الكلامية ، مما يجعل الصناعة الشعرية والأساليب البيانية هي المتحكمة لا سرْد الوقائع ومُواكبة الزمن . ومما يزيد في القيمة الأدبية للهمزية أن البوصيري يخلّل هذه الأحداث بذكر المعجزات التي صحبتها أو ناسبتها مما رُوي في الصّحاح أو كُتُب السّيرة وحتى الموالِد منها ، مُخيّلاً بها ومُضفياً على عمله حُلّة الاعجاب والابداع ، وهذا إلى ما يُقحِمه أثناء الاخبار ويثيره من عواطفَ ومشاعر تناسب الموقف وتشُدّ النظر إلى موضع العبرة فيه . فهو يقول في مضايقة قريش له :

ويْحَ قوم جفوا نبياً بأرض ألِفَتْه ضبابُها والظباء
وسلَوْه وحنّ جذع إليه وقلَوْه وودّه الغرباء

ففي هذين البيتين يلتقي المزاج الرّومانسي للشاعر بالأحداث التي وقعت للنبي على سبيل المعجزة فيُكيّفها بشعور العطف والتأثر ويقدم لنا صورة شعرية مؤثرة لا وقائع من السيرة يحتاجُ بيانُها إلى عدة صفحات .

وبعد هذا القِسْم الطويل يدخل الناظم في ذكر أوصافه (ص) الخَلقية والخُلقية فيفيض في ذلك ويتفنن ما شاء ، وهي أوصاف لا تليق إلا بمقام النبوءة ومن ضِمنْها هذا البيتُ الذي يشتمل على معنى فريد :

كَرُمَتْ نفسُه فما يخطُر السو
ءُ علـــى قلبـــه ولا الفحشاء

ثم يخص بعض أطرافه الشريفة بالوصف فيقول في وجهه الكريم :

ليته خصّني بـــرؤيـــة وجـــه
زال عن كل من رآه الشـــقاء

ويوالي الوصف بما يليق بالوجه من جمال حسي ومعنوي ومخايل النبل والكرم ، ولا تغفُل عما في قوله ليته خصني من دلالة على الطبيعة الأدبية والرومانسية لقصيدة الهمزية ، فهي ليست كتاباً أو نظماً للسيرة ولكنها عمل فنيّ ذاتيّ موضوعه السيرة .

ويقول في وصف يده عاطفاً على قوله برؤية وجه :

أو بتقبيل راحة كان للـــه وبالله أخذها والعطاء

ويتابع وصفها بما صدر عنها من أعمال كبيرة ومعجزات خارقة للعادة . ثم يختم بوصف قدمه فيقول :

أو بلثْم التّراب مـــن قدَم لا
نت حياءً من مشـــيها الصفواء

ويُلمّ بما يتعلّق بها من معجزات ومساع حميدة لا أرى بدأ من رواية بيت آخر مما يقوله فيها ، لأن إعجابي به لا يقف عند حد وهو هذا :

فهْيَ قُطْبُ المِحْراب والحرب كم دا
رتْ عليهـــا في طاعة ارْحَـاء

وهو يقصد بالطاعة هنا الصلاة والجهاد ، ففيه رد العجز على الصدر بطريقة عجيبة .

ويدخل البوصيري أثر ذلك في ضرب آخر من الكلام وهو فتح باب الجِدال والمناقشة مع الكفار ثم اليهود والنصارى ويرد مطاعنهم على الاسلام فيقول :

عجباً للكفـــار زَادوا ضــــلالاً
بالذي للعقول فيـــه اهتـــداء

وهذا القسم طويل يكفينا أن نحيل عليه ، وهو يختمه بالكلام على الأحلاف التي كان المشركون يعقدونها مع يهود المدينة لمقاومة الدين الجديد ، وما جرّتْ عليهما معاً من الوبال ، وكل ذلك بطريقته التي أشرنا إليها ، فلا تظن أنه مجرد تسجيل للأحداث التاريخية ، وزاد في طرافة هذا القسم أنه كاد يكون حِواراً كلّه ، يَعْتَمِدُ فيه الشاعر على العقل والمنطق من غير اخلال بلغة الشعر والبيان .

ويلي ذلك الكلامُ على فتح مكة وانهيار مقاومة المشركين له ، وعفوه عن قريش وانتِصار الاسلام :

فعفا عفْوَ قادر لم يُنغّصه عليهم بما مضى اغراء
وإذا كان القطعُ والوصل لله تَساوَى التقريب والاقصاء

ثم يقول البوصيري بعد ذلك :

النبيّ الأميّ أعلمُ من أسند عنه الرواة والحكماء
وعدَتْني ازدياره العامَ وجْناءُ ومنَّت بوعدها الوجْنَاء

ويمضي في وصفه ناقته ورحلته إلى الحجاز والمراحل التي قطعها من مصر إلى مكة فالمدينة وأعمال الحج والزيارة حين يقول :

فحططنا الرحال حيث يُحَطّ الـ
وزر عنا وترفع الحَوْبَاء
وقَرأنا السلامَ أكرمَ خلق الله
من حيثُ يُسمَع الإقراء
وذهَلْنا عند اللقاء وكم أذْ
هل صبّاً من الحبيب لِقاء
ووجَمْنا من المهابة حتى
لا كلامٌ منا ولا إيماء

ويدخل البوصيري بعد ذلك في قِسْم يمكن أن نسميه قسم المناجاة فيخاطب النبي مُقْسِماً عليه قَسَماً أدبياً ببعض صفاته ومعجزاته التي لم يسبق له ذكرُها وبأصحابه الكرام ، الخلفاء الراشدين وبقية العشرة المبشرة وعميْه حمزة والعباس وسبطيه الكريمين وأمهما الزهراء ، سائلاً منه الشفاعة والأمن يوم الفزع الأكبر والنجاة من العذاب إلى آخره ، مما لا يُسأل عندنا إلا من الله عزّ وجل . ولكنا نقول مرة أُخرى أن الرجل وإن هفا هذه الهفوة ، فسبيلُه في ذلك سبيلُ الأدباء الذين تحملهم المبالغة في المدح على الوقوع في بعض المخالفات . ومن ثمّ قلنا في قَسَمِه هذا أنه قسَم أدبي حتى لا يُورَد عليه أن القَسَم لا يكون إلا بالله . وعلى أي حال فقد رقّق البوصيري في هذا القسم غاية الترقيق ، وتوسل بألطف العبارة ، وأشفق من ذنبه واعترف بتقصيره ،وأعرب عن ذات نفسه بما لا كفاء له في الحسن والبلاغة والانسجام . واليك قوله في أوله :

يا أبا القاسم الذي ضِمْن إقسا
مي عليه ، مدحٌ لـــه وثناء

بالعلوم الــتي عليك مـــن الل
ه بلا كاتب لهـــا ، إمــلاء

ومَسِير الصَّبَا بنـــصرك شهرا
فكأن الصَّبَا لديـــك رُخــاء

وقوله في آل البيت :

آلَ بيت النبي طبتُم فطابَ الـ
مدحُ لي فيكم وطاب الرثاء

أنا (حسَّانُ) مدحكم فإذا نُحـ
تُ عليكم فإنني (الخنساء)

وقوله متضرعاً :

آهِ مما جنيتُ إن كان يغني أَلِفٌ من عظيم ذنب وهاء
أرتجي توبةً نصُوحاً وفي القلـ ـب نفاق وفي اللسان رياء
ومتى يستقيم قلبي وللجسـ ـم اعوجاج من كَبْرتي وانحناء

هذه هي الهمزية في خطوطها العريضة وأغراضها المتنوعة ، أفلا يرى القارىء معي أنها من أجمل شعر الملاحم أو الشعر القصصي على العموم ، ومع ذلك فإني لا أرى لِزاماً أن يقلد الأدبُ العربي الأدبَ الأجنبي في كل خصائصه ومميزاته وأسمائه واصطلاحاته ، فأفضِّلُ أن نطلق على هذا اللون من الشعر ، اسم شعر السير ، ونجعله في مقابل شعر الملاحم عند غيرنا ، على أن نُبرِزه ونُحسِن عرضه ونُدخله في عداد الفنون الشعرية ولا يبقى عرضة للاهمال وعدم الاحتفال .

وما قيل في همزية البوصيري يقال في بُردته وفي بقية

القصائد التي ألمعنا إليها وغيرها مما لم نذكره ، فإنها كلها غُرر ودُرر من هذا الفن الشعري الجميل ، وأما قبلُ وبعدُ فإنها من أدب الفقهاء الذي يزْري به من يُرسلون الكلام على عواهنه ، وهو أحق أن يكون مفخرة للأدب العربي وجوهرةً لامِعةً في تاجه الوضّاء .



فنون شتى

ويشتمل أدب الفقهاء على أغراض أُخرى وفنون شتى من القول ، غير الموضوعات الشعرية الأساسية التي سبق الكلام عليها ، وبعضُها مما يتضمن معاني وصُوراً قلما نعثر عليها في شعر الأدباء من غير أصحابنا ، وبعضُها الآخر مما يحتوي على صنعة أدبية فريدة ، وطراز بديع من الصياغة الشعرية لم تتحدث عنه كتب هذا الفن إلا قليلاً . ونرى من تمام العناية بهذا الأدب أن نُلِمَّ من ذلك بنماذج تمثل ما للفقهاء من اهتمامات أدبية تختلف مضموناً وشكلاً عن المساطر والمجالات المعروفة في عالم الأدب ، وأقل ما يستنتج منها هذا الأفق الواسع للرؤية الشعرية عند الفقهاء ، الذي ينفي عنهم كل ما قيل في ضعف انتاجهم الأدبي ، والشعر منه بخاصة .

وأول ما نبدأ به قولهم في نقد الأوضاع الاجتماعية الفاسدة ، والتنديد بالحكام الجائرين ، وصنائعِهم من أعداء الملة والدين، وفي هذا الباب يجب أن نتذكر ما لشعراء الخوارج ، وأكثرهُم من الأئمة الأعلام ، من أشعار تتمثل فيها روح الثورة على الظلم والاستبداد ، والحكم المطلق ، والحياة العابثة التي كان المتسلطون يشيعونها في الناس ، ولكنا لا نورد شيئاً من هذه

الأشعار لاشتهارها أولاً ، ولأنها ثانياً تعبر عن نزعة سياسية خاصة لسنا بصدد التعرض لها في هذا البحث الذي انما يعنى بالناحية الأدبية في أعمال الفقهاء ورجال العلم .. على أن أشعار الخوارج هي باتفاق نقَدَة الأدب في الذروة من البلاغة وحسن الأداء ، فما كان منها لفقهائهم فهو حجة لأدبهم وأدب الفقهاء بِعامّة . ونشير فقط إلى نماذج متداولة من أقوال فقهائنا المعروفين في هذه المقاصد ، وهي الّتي تعتد بقوة الكلمة وحدها ، ولا تعتبر قوةً غيرَها وسيلةً إلى الاصلاح على طريق الدّعاة والمرشدين ، والأدباء الملتزِمين فمن ذلك ما اشتهر من قول أحد متقدمي أهل العلم :

هذا الزمانُ الذي كنا نحـاذِرُه
في قول كعْب وفي قول ابن مسعود

إن دام هـذا ولم يحدُثْ لهُ غِيَر
لم يُبك ميْت ولم يُفرَح بمولـود

وهذان البيتان هما مما جرى على كل لسان ، وأصبحا مثلاً مضروباً في فساد الزمان وأهله ، وفُشوّ المنكر ، وانحلال المجتمع ، حتّى انه قلما يتحدث متحدث أو يكتب كاتب في موضوع التّربية الدينية والخُلُقية ولا يُنشدهما ويتمثل بهما وهما على ما نرى من متانة الحوْك وشدّةِ التأثير بحيث ينفذان إلى أعماق النفس ويغمُران المشاعر بفيض من الأسى

والحسرة ، وذلك غاية ما يُتوخّى من أية تجربة شعرية ناجحة . وكعبٌ المذكور فيهما هو كعبُ الأحبار تابعي مشهور وابن مسعود هو الصحابي الجليل عبدالله الهُذَلي ، وتُروى عنهما أقوال في فساد الزمان وتغيير المنكر.

ومنه قول أبي الفرج بن هند وفي ملِك ليس له من الملك إلا الاسم :

لنا مَلِك ما فيه للملك آلَةٌ
سوى أنه يوم السلامِ مُتوّج
أقيم لإصـــلاح الورى وهو فاسد
متى يستقيم الظل والعودُ أعوج

ولا نجد لشاعر من الشعراء مثلَ هذين البيتين في تصوير ما آل إليه الأمر في بعض العصور من تنصيب إحدى الدّمَى على العرش ، واطلاق اسم الملك عليها ، واعتماد هذا الملِك بالتحية وسائر مظاهر الملك ، وادعاء أنه سيُصلح البلاد والعباد ، مع أنه في نفسه فاسد ، فكيف يأتي الصلاح من الفساد ، والظل إنما يمثل الشاخص ؟ فإذا كان هذا مائلاً فإن ظله لا يكون إلا مثله . والتعبير بالاستقامة والاعوجاج في الشعر أبلغ مما فسرنا به مثَلَه المضروب ، وذلك مما زاده بلاغة وقوة حجة .

إن مثل هذا الملك كثيراً ما لهج الشعراء بمدحه ونوّهوا بأياديه ، ومن هـُنا يـُعلـَم صدق التجربة الشعرية عند أصحابنا العلماء ، فهم ينظرون للصالح العام . ولا يـُغـْويهم عطاءُ الملوك فيبتذلوا الكلمة ويتآمروا مع المتآمرين .

ولأبي بكر الطـّرْطـُوشي يخاطب الملك الأفضل شاهـِنشاه :

يا أيها المـَلـْكُ الذي جـُودُه   يطلبـُه القاصد والراغب
ان الذي شـَرُفتَ من أجله   يزعمُ هذا أنــه كاذب

وقصة البيتين كما حكاها القرافي[1] أن الأفضل غضب على الطرطوشي غضباً شديداً بتحريض وزير له ذِمـّي فأمر بإحضاره عازماً على عقوبته ، فلما دخل عليه ورأى الوزير المذكور بجنبه خاطبه بذينك البيتين ، ففهم الأفضل دسيسة الوزير وأقامه من مكانه وأجلس فيه الشيخ وأكرمه ... والوزراء والمستشارون من هذا القبيل بحكم الفـَنـّية والخبرة ، كم جرّوا على البلاد من مِحَن ، وكم أثاروا من فِتـَن ، ولم يـُوحـَد من ينبه على خطرهم إلا فقيه شاعر هو الطرطوشي .

ولأبي عبدالله بن جـُزَيّ في طبيب يهودي :

ورُبَّ يهودي أتى مـُتطببّاً
لِيأخذَ ثاراتِ اليهود من الناس

(١) أورد الطرطوشي الحكاية في كتابه سراج الملوك باختلاف يسير ، ناسباً لها إلى رجل ذي عقل وأدب فلعله كنى بذلك عن نفسه ؛ وهي في ابن خلكان أيضاً منسوبة إليه .

اذا جسَّ نبــضَ المرء أوْدَى بنفسه
سريعاً ، ألم تسمعْ بفتــكة جَسّاس

وهذه صورة أخرى تجسّم مكر اليهود الذين يتخذون العلم وسيلة لاستغلال ضعف الانسان والتآمر عليه ، وهي صورة طِبْقَ الأصل مما توصي به بروتوكولات صهيون ، اليهودَ ، أبرزَها العالم ابن جُزَيّ قبل نشر هذه البروتوكولات بقرون ، ودل بذلك على بُعد نظرٍ وشدة انتباه إنما يوجدان عند أهل العلم ، ثمّ سجّلها ظاهرةً عنصريّةً بغيضةً في بيتين من الشعر على جانب كبير من الفصاحة والبيان .

وشعرهم في فساد المجتمع وانتقاد الحكّام كثير ، وقد ذكرنا منه تفاريقَ فيما مضى من التراجم كترجمة عبدالله ابن المبارك وغيره فلنكتفِ منه بهذا القدر .

ومن الموضوعات العزيزة التي نلتقي بها كثيراً في شعر الفقهاء محاربة الشعوذة والتدجيل وتنمية الوعي ، والشعور بقيمة العلم والعقل ، مما أثر دائماً في رفع المستوى الفكري والحضاري لعامة الشعب ولم يتركهم فريسة الأوهام والخُرافات.

فمن ذلك قول محمود الورّاق في المُرائين من الزهاد :

أظهرُوا للناس نُسْكاً وعلى الدينار داروا

وله صلّوْا وصامُوا وله حجّوا وزاروا
لو رأوْه في الثّريـا ولهم ريشٌ لَطارُوا

وقول آخر في العلماء المزيـّفين :

قلْ للذين تكلـّفوا زِيّ التّقــى
وتخيـّروا للدرس ألفَ مجلـد
لا تحسبوا كَحَل العيون بحيلة
إن المَهـا لم تكتحـل بالأثمـد

ومنه لأمية بن عبد العزيز بن أبي الصَّلْت العالم الطبيب الأديب في بطلان التنجيم واعتماد الطالع :

لا ترْجُ في أمرك سعدَ المُشْتَرِي
ولا تخف في فَوْتِـهِ نحْسَ زُحَل
وارجُ وخَفْ ربّـهُما فهو الـذي
ما شاء من خير ومن شرّ فَعَـل

ولغيره في المعنى :

مَن كان يخشى زُحـلاً أو كان يرجو المُشترِي
فإنني منـه ولـو كان أبي الأدنى بَـرِي

ولآخر مصححاً العقيدة في ذلك :

خبّـِرنْ عنيَ المُنجـّـِم أني — كافر بالذي قضتْه الكواكب
عالم أن ما يكون وما كا — ن قضاءٌ من المهيمن واجب

ولآخر مُبيناً الغاية التي تُتوخّى من الرصْد :

ليس للنجم إلى ضـــــر — ولا نفع سبيـــــل
إنمــــا النجم على الأو — قات والسّمْتِ دليل

ولأبي بكر الزّبَيْدي اللغوي وارتكب فيه المذهبَ الكلامي من البديع :

يقول المنجم لي لا تَسِرْ — فإنك ان سرتَ لُقّيتَ شرا
فإن كان يعلم أني أسير — فقد جاء بالنهي ظُلْماً وجوْرا
وإن كان يجهل أني أسير — فجهلُ العَواقب أولى وأحرى

ولآخر يخاطب أحد الملوك وقد نهاه مُنجمُه عن الغزو :

دع النجوم لِطَرْقِيّ يعيش بهـــا
وقُمْ لوقتك وانهض أيهـــا الملِكُ

ان النبي وأصحـــاب النبي نَهَــوْا
عن النجوم وقد أبصرتَ ما ملكُوا

ومنه للشيخ أحمد زرّوق في التنبيه على نوع آخر من الشعوذة وهو الاشتغال بالكيمياء واستخراج الكنوز :

كافُ الكنوز وكافُ الكيمياء معـاً
لا يُوجَدان فدع عن نفسكَ الطمعَا

وقـد تحدث أقـوامٌ بأمرهمـا
ومـا أظنهمـا كانـا ولا وقَعـا

وغني عن البيان ما في هذه الأشعار من تنوير للعقول وتمحيص للحقائق ، فإذا كان بعض الشعر ، وخاصة هذا الذي يستعين بالمثولوجيات وأساطير الوثنيين ، قد يزيد الناس عمىً ويعودُ بهم في حافِرة الجاهلية الأولى ، فإن هذه الأشعار تنبه الغافلين ولا تدع الجهل يستبد بأوساط الناس ، لأنها دعوة إلى التحرر من عبُودية الدجالين والمشعوذين ، ونبذ الأفكار الرّجْعيّة والتّرَّهات الباطلة . وهذا المُحتوى الانساني الرفيع إلى النظم البياني البديع ، هو الذي جَعَلَنا نسميها أشعاراً ونعدّها في خاصّ الخاصّ من أدب الفقهاء . وكان بودنا أن نقف عند كل قطعة منها ونُبرز ما فيها من صدق التجربة وجمال الأداء ، ولكنا رأينا ذلك يطول فضربنا عنه صفحاً مكتفين بالاشارة إلى مُقارَنة البيتين اللذين يخاطب بهما صاحبُهما الملكَ المتوقف عن الغزو لنهي منجمه له عنه ، بالأبيات الأولى من بائية أبي تمام التي يمدح بها المعتصم لمّا

فتح عَمّورية وهي :

السيفُ أصدَقُ أنبـاءً من الكتب
في حـدّه الحدّ بـين الجدّ واللعب

بيضُ الصفائح لا سُودُ الصحائف في
متونهن جـلاءُ الشك والريب ...

فهذه المقارنة تظهر أن نفَس الشاعر وإن كانَ أطول وأقوى ، إلا أن بيتي صاحبنا الفقيه يكتسيان حلّةً من الوُضوحُ وقُوة الحجة ليست لأبيات أبي تمام ، ومع ذلك فهي أسْيَرَ وأشْهَرُ لمكانَةِ الشاعر ، ومكانةِ الممدوح ، ومكانةِ المدينة المفتوحة وما كان لفتحها من صدى بعيد في البلاد حتى لقد سماه أبو تمام فتْحَ الفُتوح . على أن من تتمة حكاية البيتين المذكورين فيما يُروى أن الملك المخاطب بهما نهض إلى حرب عدوه فانتصر عليه وظفر به ظفراً مبيناً ، تماماً كما وقع في عمورية .

ومن طريف أدب الفقهاء ما يقولونه في وصف الحياة العلمية والانقطاع إلى الدرس والتحصيل واغتباطهم بذلك واعتباره أعظم مُتْعة روحية تقر بها أعينهم وتُغنيهم عن كل متعة مادية يشتغل بها غيرُهم حتى أن بعضهم جعل اللذّة الحقيقيةَ هي لذه المعرفة كما قال ابنُ السّبْكي في جمع

الجوامع : (واللذة حصرَها الامام(١) والشيخُ الامام(٢) في المعارف) وهكذا نجد أحدَهم وهو أبو سليمان الخطّابي في بُرْجِهِ العاجي يقول مستهيناً بالدنيا وما فيها :

أنِستُ بوحدتي ولزمتُ بيتي   فدامَ الأنسُ لي ونما السرور
وأدبني الزمانُ فما أبالي   هُجِرتُ فلا أزار ولا أزُور
ولستُ بسائل ما عشتُ يوماً   أسار الجندُ أم ركِبَ الأمير

ويجيب أحمد بن فارس اللغوي مَن سأله كيف أنت ؟ مُظْهِراً غاية الاعتزاز بالعلم :

وقالوا كيف أنت فقلت خير   تُقضّى حاجةٌ وتفوتُ حاجُ
نديمي هِرّتي وأنيسُ نفسي   دفاتِيري ومعشوقي السراجُ

ويَعتبر القاضي أبو الحسن الجُرجاني لذةَ العيش هي القراءة قائلاً :

ما تطعّمْتُ لذةَ العَيْشِ حتى   صرتُ للبيت والكتاب جليسا
ليس شيء أعزّ عندي من العلـ   ـم فما أبتغي سواه أنيسا

أما محمد بن هرون الدِمشقي فإن قرة عينه أن تتوفر له أدوات الكتابة الكافية كما يقول :

---

(١) امام الحرمين أبو المعالي الجويني .
(٢) والد ابن السبكي .

لَمِحبرةٌ تجالسني نهاري   أحبّ إليّ من أنس الصديق
وَرَزْمَةُ كاغَدفي البيت عندي   أحبّ إليّ مِن عِدْل الدقيق

ويقول عبد السلام جَسّوس في فضل أهل العلم :

إذا ما اعتز ذو جهل بمال   وعُظِّم في نفوس الجاهلينا
فأهلُ العلم أعلى الناس قدراً   وأعظمُ عند رب العالمينا

ويقول غيره في رضى العلماء بقِسْمتهم :

رضِينَا بالعلوم تكون فينا   مُخلّدةً وللجهال مـال
فإنّ المال يفنى عن قريب   وان العلم بـاقٍ لا يزال

ويحسم آخر الخلاف في المفاضلة بين أهل العلم وغيرهم فيقول :

ما الناسُ إلا العالمون حقيقة   وسواهمُ متطفل في الناس

ومما قاله الجاحظ في لقاء أهل العلم :

يطيب العيش أن تلقَى لبيباً   غذاهُ العلم والرأي المصيب
فيكشفُ عنك حيرّة كل جهل   وفضل العلم يعرفه الأريب
سَقامُ الحرص ليس له دواء   وداءُ الجهل ليس له طبيب

وللقاضي عيّاض في تقريظ أهل العلم وبَرَكَةِ اجتماعهم :

وللّه قومٌ كلمـــا جئتُ زائـــراً
وجدتُ قلوبـــاً كلّها مُلِئَتْ حِلْما

إذا اجتمعوا جاؤوا بكل فضيلة
ويزداد بعضُ القوم من بعضهم علما

وذَيّلَهُ أبو الحسن الرّعَيْني فقال :

أولئك مثـــلُ الطيب كلٌّ له شذًى
ومجموعه أذكى أريجـــاً إذا شُمّا

وزاد عليه أبو بكر بن عَتيق اللارِدي :

تَعاطَوْا كؤوس العلم في روضة التقى
فكلّهمُ من ذلك الريّ لا يظْمـــا

هذا جو من الحياة السعيدة المليئة بالغبطة والسرور ورضا النفس وطمأنينة القلب ، يعيش فيه الفقهاء والعلماء معتزين بما أوتوه من شرف الحكمة وما خصوا به من مزية المعرفة ، فهم في عالم طُوباوي لا يرضون به بديلاً ، ومهما تظاهر أهل الجاه والمال بمظاهر العظمة والعيشة الرخية ، فإن ذلك لا يكبر في أعينهم ولا يستهويهم ، لأنهم يرون أنّ ما هم فيه

من مُتْعَةٍ روحية هو العيشة الراضية والحياة الكريمة التي لا معنى للوجود بدونها . ولقد قال بعضُهم في هذا الصدد ، لو يعلم الملوك ما نحن فيه من كرم العيش لَجالَدونا عليه بالسيوف. والأشعار التي أوردناها ، وهي قُلٌ من كُثْر ، تعبر عن هذا المعنى أصدقَ تعبير ، فلذلك قلنا في هذا الموضوع أنه من طريف أدب الفقهاء .

ومن لطائف أدبهم أوْصافٌ وصُوَر يُبرزون فيها المعقول بهيئة المحسوس ويُبَسِّطون فيها المُركّب حتى يُزايلَه الغموض ، وذلك نتيجةٌ لتعودهم على الدرس وتوضيح المسائل ، فمما نذكره في هذا الباب قولُ ابن المُعافى مجسّماً نتيجة العجز والتواني :

ألم تَـرَ أن العجز زوّج بنتَـه
من ابن التّوَاني ثم ساق لهَـا مهْرا

فِراشاً وَطِيئاً ثم قال لها اتّكِي
قُصارَاكُما لا شك أن تَلِدا فَقْرا

وقول آخر مفضّلاً الحِلْم على العقل بحجة كلامية :

حِلْمُ الحليم وعقـلُ العاقل اختلفا
مَنِ الذي منهما قد أحْرَزَ الشرفا

فالحلمُ قــال أنا أحرزتُ غايته
والعقلُ قــال أنا بي اللهُ قد عـُرِفا

فأفصح الحلم إفصاحاً وقــال له
بأيّـِنـــا الله في قرآنــه اتّـصَفــا

فبـــانَ للعقـــل أنّ الحلم سيّـدُه
فقبّـــل العقلُ رأسَ الحِلْم وانصرفا

وقول آخر يصف بليداً :

لو قيل كم خمسٌ وخمسٌ لارتأى
يومـــاً وليلتَه يعُـــدّ ويحسُب

ويقـــولُ مُعضِلة عظيمٌ أمْرُها
ولئن فهمتُ فـــإن فهمي أعجب

حتى إذا خَصرت أنــامل كفـه
عدّاً وكادت عينُـــه تتصوّب

أرْبَى على نَشْزٍ وقال ألا اسمعوا
قـــد كدتُ من فرح أُجَنّ وأطرَب

خمس وخمس ستـــة أو سبعـــة
قولان قـــالهما الخليـــل وثعلب

وقول آخر في مناظر مُراوغ :

ما لِي إذا ألزمتُه حجـــة قابلَني بالضّحْك والقهقهه
إن كان ضِحكُ المرء من فقهه فالذيبُ في الصحراء ماأفقهه

وقول أبي حيان في مثله :

وإذا جلستَ إلى الرجال وأشرقت
في جوّ باطِنِك العلوم الشّـرّدُ
فاحذَر مُنَاظرَة الحسود فإنمـــا
تغتـــاظُ أنت ويستفيـــد ويجحد

ولمنصور الفقيه في ذم الحسد بطريقة الجدل :

ألا قُلْ لمن ظلّ لي حاسدا أتدري على من أسأت الأدب
أسأتَ على الله في حكمه لأنك لم ترضَ لي ما وهب
فجازاك عني بأن زادني وسدّ عليك وجوه الطلب

ولغيره في تمثيل الرزق :

مثَلُ الرزق الذي تطلبه مثَلُ الظل الذي يمشي معك
أنت لا تُدركه مجتهــدا وإذا وليتَ عنه تبِعَك

ولآخر مُلمّحاً لجنس الحقيقة الانسانية في تبرير تكافؤ الأفراد وان اختلفت حيثياتهم :

إذا شُوركتَ في أمر بدون فلا يكُ منك في هذا نُفور
ففي الحيوان يجتمع اضطرارا أرِسطاليسُ والكلبُ العقور

ولآخر فيما يخالف ذلك :

وللزّنبُور والبازي جميعاً لدَى الطَيران أجنحة وخَفَق
ولكن بين ما يصطاد بازٍ وما يصطاده الزنبور فَرْقُ

وشعرهم من هذا القبيل كثير فلا نطيل به ، لا سيما ونحن نكتبه في الغالب من حفظنا ولا نستحضر قائله فلا نحب أن نتورط فيما لا يكون من شعرهم ، وإنما نثبت ما تحققنا منه وشككنا في صاحبه ، أو ما دل بصياغته على أنه من بضاعتهم ، وفوق جهدك لا تُلام .

وبعد هذه الأمثلة من المعاني والصور الفريدة التي عُنِي بها أدب الفقهاء إلى جانب الموضوعات الأدبية الرئيسية ، نورد نماذج من كلامهم الذي اعتمدوا فيه صناعة البديع والمحسنات اللفظية لنرى ابداعهم في هذا الفن أيضاً ، بل تصرفهم فيه بما يدل على أن الرؤية الشعرية عندهم أوسعُ من أن تحدّها الأشكال والعبارات ، وبما أن هذا الباب واسع فسنقتصر منه على نوع واحد هو التضمين .

فالتضمين وهو اقتباس بيت أو شطر من كلام شاعر سابقٍ

مع حسن تأتٍّ يجعله ينسجم وكلامَ المقتبِس حتى يبدو كأنّه جزء منه ، هو من محسّنات البديع ، وقد كثُر وقوعه في كلام المتأخرين وهم يتفاوتون في إحكام صنعته بحسب القوة والضعف في صياغة الكلام وعدم ظهور التعمّل فيه ومن أرقاه ما وقع لابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد من تضمين شواهد العروض في جميع بحور الشعر الخمسة عشر فليُنظَر فيه .

أما أصحابنا الفقهاء فمن قول بعضهم فيه مُضمّناً شطر بيت من ألفية ابن مالك :

العلماء كلّهم مَن سادا أو لمْ يسُدْ ، لم يبلُغ المرادا
فرزقُهم مُرخّم مُنادى (كيا سُعا فيمن دعا سعادا)

والشطرُ المضمَّن هو من قول الألفية في باب الترخيم :

ترخيماً احذِفْ آخرَ المُنادَى كياسُعا فيمن دعا سعادا

وقد تأتّى له هذا الفقيه الأديب أحسنَ التأتي وأدخله في كلامه بصورة لا يهتدي إلى أنه مضمن مَن لم يكن يعرف الألفية وانها هي التي ضربته مثلاً للترخيم ، وهذا بقطع النظر عن جمال هذا الكلام وما فيه من اقتباس لقاعدة الترخيم في علم النحو حتى حسُنَ تضمين الشطر المذكور وضربُه

مَثَلاً لنقصان رزق العلماء وقلة حظهم على حسب ما يقال .

وتضمينُ أشطار الألفية مما أُولع به الطلبة والمشائخ حتى انهم استعملوه في النسيب والمدح وغيرهما من الأغراض الشعرية ، ومما نذكره من ذلك قول بعضهم :

إذا أتى الحبيب للباب ودق   افتح وقلْ مَن بكسره نطق
وإن أتى الرقيبُ (والملحق به   بعكس ذاك استعملوه فانتبه)

وفي نفح الطيب رَجزِية لمحمد بن يوسف التاملي نِصْفُ أبياتها أشْطار مــن الألفية ، وهي في مدح صاحب النفح فمن قوله فيها :

نُشير بالتضمين للنحرير   المقّريِّ الفاضل الشهير
ذاك الامام ذو العلاء والهمم   (كعلَم الأشخاص لفظاً وهو عم)
فلن تَرى في علمه مثيلا   (مستوجباً ثنائي الجميلا)
ومدحُه عنديَ لازم أتى   (في النظم والنثر الصحيح مُثْبتا)

وهذان المثالان إنما أتينا بهما على سبيل الإحماض للمناسبة ، وإلا فهما لا يرتقيان إلى درجة المثال الأول الذي أُحكِم معنى وأسلوباً .

ومن أبدع ما وقع للمتأخرين في هذا الباب قول الشيخ يوسف النبهاني في آخر لاميته التي عارض بها قصيدة كعب ابن زهير الشهيرة في مدح النبي (ص) وهو هذا البيت :

إن كان متبولَ قلب حين أنشدكم
(بانتْ سعادُ ، فقلبي اليومَ متبول)

ومعلوم أن هذا الشطر المضمّن هو صدر مطلع القصيدة المُعارَضة ، ونصّه بصدره وعَجُزه :

بانتْ سعادُ فقلبي اليوم متبول
مُتَيّم إثرَها لم يُفْدَ مكبُول

فالنبهاني لما ضمّن صدر هذا البيت ، وهو يخاطب الممدوح عليه السلام ، جعَل منه جواباً لصدره هو ، فقلَب معنى الفاء في صدر بيت كعب من العطف إلى جواب الشرط ، وأوهم أن المضمن إنما هو قول كعب (بانت سعاد) أيْ جزءُ الصدر ، وساعدَه على ذلك أن هذه القصيدة اشتهرت باسم بانت سعاد أي بهذه الجملة كما قال أبو اسحاق الغزّي فيها :

محتْ بانت سعادُ ذنوبَ كعْب وأعلتْ كعبَه في كل ناد
وما احتاج النبيّ إلى قصيد مُشبّبة ببَيْن من سُعاد
ولكن سنّ إسداءَ الأيادي فكان إلى المكارم خيرَ هاد

وعلى كل حال فقد بَقِي جزُء الصدر الآخر وهو قوله فقلبي اليوم متبول كأنه خارج من التضمين لأنه جواب الشرط في صدر النبهاني ، والحالُ أنه مضمّن كالجزء الأول ، وذلك منتهى البراعة .

والغايةُ في هذا الباب قصيدة أبي بكر بن جُزَيّ التي ضمّنها أعجازَ قصيدة امرىء القيس ونقَلَها من معانيها الهزْلية إلى معانٍ جِدّية من الوعظ والمديح النبوي وذلك حين يقول :

أقول لعزمي أو لصالح أعمالي
(ألا عِمْ صباحاً أيها الطلل البالي)

أما واعِظي شيبٌ سما فوق لمّتي
(سُموّ حبَاب الماء حالاً على حال)

أنار به ليلُ الشباب كأنه
(مصابيحُ رهبان تُشَبّ لقفال)

نهاني عن غَيّي وقال منبهاً
(ألستَ ترى السمّار والناسَ أحوالي)

يقولون غيّرْه لتنعم برهة
(وهل ينعَمنْ من كان في العُصر الخالي)

أغـالِطُ دهري وهو يعـلمُ أنني
(كبرت وأن لا يُحسِن اللهوَ أمثالي)

ومُؤنِس نار الشيب يقبُـح لهوُه
(بآنسـة كأنها خـطّ تمثـال)

أشيْخاً وتـأتي فِعْلَ من كانَ عمره
(ثلاثـين شهراً في ثـلاثة أحوال)

وتشغَفُك الدنيـا وما ان شغِفْتَها
(كما شغِفَ المهنوءةَ الرجُل الطالي)

ألا إنهـا الدنيا إذا ما اعتبرتَهـا
(ديـار لسلمى عافيات بذي خال)

فأيـن الذين استأثروا قبْلَنا بهـا
(لَنامُوا فما ان من حديث ولا صال)

ذهلتُ بهـا غيّاً فكيف الخلاص من
(لَعوب تنسيني إذا قمت سربالي)

وقـد علمتْ مني مواعـد توبتي
(بأن الفتى يهذي وليس بفعـال)

ومُـذْ وثقت نفسي بحب محمـد
(هصرت بغصن ذي شماريخ ميال)

ومن هنا تخلص للمديح وسار فيه على هذا المنهاج متانةَ أسلوب وحسنَ صياغة ، ولمّا أنشد المقري هذه القصيدة في نفح الطيب عقب عليها بقوله : « ولاخفاء ببَراعة هذا النظم وإحكام هذا النسج وشدة هذه العارضة » وهذا ما يهمنا أن يعرفه كل من يزري بأدب الفقهاء ، وما نريد أن يتحقق منه من كان في شك من أمر هذا الأدب ، حتّى يرد له اعتباره ويقدره حق قدره .



النظم التعليمي

ومن ألوان أدب الفقهاء ما يسمى بالنظم التعليمي ، وهو هذه المُتون العلمية المنظومة التي تزخر بها المكتبة العربية وتُكوّن سجلاً حافلاً من الكتب الدراسية التي لبث طلابُ العلم في العالم العربي قروناً طويلة يستعملونها في دراساتهم المتنوعة ، ويقتبسون منها المعارف والفنون جِيلاً بعد جيل .
لأويُرجح أن أول من تعاطى هذا اللون من الأدب أبانُ اللاّحق اديب العباسي المشهور ، فإنه كان في خدمة البرامكة كاتباً لهم ومؤدباً لأبنائهم فنظم لهم كتاب كليلة ودمْنة في رجز سلْس ليسهل عليهم حفظه وهو الذي يقول في أوَّله :

هذا كِتابُ أدبٍ ومِحْنَهْ　　وهو الذي يُدعى كليله دِمنه
فيه احتيالاتٌ وفيه رُشْدُ　　وهْوَ كتاب وضعته الهندُ

وقد أجازوه عليه بآلاف الدنانير . ثم نظم لهم رجزاً آخر في أحكام الزكاة والصيام ، ولا شك أن غيره من الأدباء نهج هذا النهج في نظم العلوم ، لا سيما مع العلم بما حصل عليه أبان من جوائز مُغْرية على ذلك . والمُهِمّ أن الفكرة خرجت أولاً من عند الأدباء ثم تبنّاها العلماء ، والجانب الأدبي فيها

هو هذه الصياغة المُختصّة بالشعر ، ولا ريب في أن التعبير الجميل عن الفكرة ، أيّ فكرة ، هو مما يدخل في مفهوم الأدب بالمعنى العام ، فلهذا عددنا هذا الانتاج من ألوان الأدب.

ولما تداول العلماء هذا الفن من القول ، أبدأوا فيه وأعادوا وأكثروا منه إلى الحد الذي جاوز العد ، ولم يبق علم لم ينظموا فيه ولا أدب ولا فن ولا ضرب من ضروب المعرفة إلا أخضعوه للوزن والقافية ، إن في رجْز أو غيره من الأبحُر كالبسيط والطويل وغيرهما . فنظموا قواعد اللغة العربية من نحو وصرف وبيان ومتن اللغة كذلك ، ونظموا الفقه والأصول والكلام والتصوف والقراءات ومصطلح الحديث ، ونظموا في الطب والكيمياء والفلك والمنطق والفلسفة والجبْر ونظموا في بعض الصناعات كالخط وتجليد الكتب وبعض الألعاب كالرّماية والشطرنج ، ونظموا ما يرجع إلى العادات والأخلاق وأدب المجتمع ، وما يتعلق بأمر الآخرة كالبعث والحساب والجزاء ، ونظموا في علم الجدول والسيميا وتعبير الرؤيا وغير ذلك مما لا سبيل إلى حصره في هذا الفصل .

وتختلف هذه الأنظام في الطول والقصر بحسب الموضوعات التي تتناولها ، فمنها ذاتُ العشَرات ، ومنها ذاتُ المئات

ومنها ذاتُ الألوف من الأبيات . واشتهرت الألفيات منها على الخصوص في بعض العلوم كألفية ابن مُعْطِي وألفية ابن مالك ، وألفية السيوطي في النحو والصرف ، وألفية العراقي في السيرة النبوية ، وألفيتهِ في المُصطلح الحديثي وألفية السيوطي فيه أيضاً ، وألفية ابن الوردي في تعبير الرؤيا ، وألفية ابن الشحنة في الفرائض ، وألفية البرماوي في الأصول ، وألفية القباقبي في علوم البيان ، وألفية السيوطي فيه كذلك ، وألفية داود الأنطاكي في الطب ، وألفية أبي الوفاء المصري في المنطق ، وألفيته في العروض وغير هذه من الألفيات المختلفة الموضوع .

وأما المنظومات التي جاوزت أبياتها الألف فمنها منظومة ابن زكري التلمساني في علم الكلام المسماة بمحصّل المقاصد ، ألف وخمسمائة بيت ونيف ، تحفة الحكام في علم الفقه لابن عاصم ، مثلها ، منظومة الكواكبي في الأصول ألف وثمانمائة ، الشقرونية في الطب لعبد القادر بن شقرون المكناسي مثلها ، الكافية في النحو لابن مالك ، نحو ثلاثة آلاف ، الأقنوم في مبادىء العلوم لعبد الرحمن الفاسي وهو شبه موسوعة تكلم فيه على نحو مائة وخمسين علماً في أكثر من خمسة آلاف بيت .

ومن الغايات في هذا الباب منظومة بدر الدين الدمشقي المسماة بفصل الخطاب في وصل الأحباب ، تكلم فيها على العلاقة الزوجية وما يتعلق بها من آداب وأحكام في نحو أربعمائة

واثني عشر ألف بيت ، منها عشرة آلاف بيت من نظمه ، والباقي مما استشهد به من نظم غيره[1] .

وعلى كل حال فالمعتبر من هذه الأنظام هو الكيفية لا الكمية ، وبإيرادنا بعض النماذج منها ومن غيرها نعرف أن عملية النظم هذه لم تكن سهلة ، وإنما تقتضي مُعاناة لكي يكون المنظوم سائغاً سهلاً يحقق المراد منه الذي هو تقريبُ حفظه وعُلوقُه بالذهن تيسيراً على الطلبة ، وتمكيناً لهم من تذكر قواعد العلم والاستشهاد بالبيت الذي يتضمن القاعدة المطاوبة في سهولة تامة ، لأن النظم يُقيِّدها وهو لا يعزُب عن الذهن إلا قليلاً ، كما قال ميمون الفخار في نظم الآجرومية :

والقصد من ذا الرجز المقرّب　　تعليمُ أولاد صغار المكتب
عسى الذي منهم به تعلما　　يقول يا رب ارحم المعلما
لما رأيتُهمُ شقُوا وتعِبُوا　　في حفظ مَنْثور ولم يقرّبوا
أيقنْتُ أن النظم فيما أدري　　أشهى وأولى من نفيس النثر

ويعجبني قول الشرف العمريطي في نظمها أيضاً :

وبعدُ فاعلم أنه لما اقتصر　　جلّ الورى على الكلام المختصر
وكان مطلوباً أشدّ الطلب　　من الورى حفظُ اللسان العربي
كي يفهموا معانيَ القرآن　　والسنّة الدقيقة المعاني

(١) توجد نسخة من هذه المنظومة عند الأستاذ حماد بو عياد بفاس .

والنحوُ أوْلى أولاً أن يُعلما إذ الكلام دونه لن يُفهما
وكان خير كتبه الصغيره كراسة لطيفة شهيره
في عُرْبها وعُجْمها والرّوم ألّفها الحبرُ ابن آجُرّوم
وانتفعت أجلّةٌ بعلمِها معْ ما تراه من صغير حَجْمها
نظمتُها نظماً بديعاً مُقتدِ بالأصل في تقريبها للمبتدي

فانظر هذه السلاسة وهذا الوضوح ، وقارن بين ما قاله أبان اللاحقي ، وهو أديب كبير ، في طالعة نظمه لكليلة ودمنة ، وطالعة العمريطي هذه ؛ يَبْدُ لك فضلُ هذا العالِم مع تأخره على ذلك الأديب مع تقدمه .

ومن أحلى المطالع قولُ ناظم كتاب المُغْني لابن هشام ، وهو يبين أيضاً أن سبب النظم هو التسهيل :

هذا بحمد الله نظم سهل مورده للطالبين نَهْل
ضمّنتُه قواعدَ الإعراب ومُلَح النّحاة والأعراب
معتمداً على كتاب المُغْني لابن هشام شيخِ هذا الفنِّ
ترتيبَه قصدتُ واختيارَه اخترتُ واختصرت في العباره
ولم أزد على بناء القاعده إلا الذي به تتم الفائده
وأسأل الله الذي ألهمني لوضع هذا النظم أن يرشدني
وأن يديم بـه الانتفاعا حتى يكون صيّباً نفّاعا

ثم الصلاة ما لها انصرام　　على رسول الله والسلام
ما أُعرِبَتْ آياتُه وفُسّرت　　وأُظهِرتْ أسماؤهُ وأُضمرت

وإذا كان أبان وغيره ينظم للجائزة فإن أصحابنا الفقهاء ينظمون رغبةً في الأجر والثواب من الكريم الوهاب لأنهم يعتبرون عملهم هذا من العبادة كما قال صاحب منظومة الظاء والضاد :

أفضلُ ما فاه به الإنسانُ　　وخير ما جرَى به اللسانُ
حمدُ الاله والصلاةُ بعده　　على النبيّ فهو أسنى عندَه
وكلّ ما يُنظم للافـاده　　فذاك معدود من العباده
وقد نظمتُ جملةً من الكَلمْ　　في الظاء والضاد جميعاً تلتئمْ
فاسمع بُنيّ من أبيك سرْدَها　　واعرف هُديتَ حصْرها وعدَّها
وابدأ إذا قرأتَها بالظـاء　　وثنِّ بالضاد على استواء

وهذه المطالع زيادة على بيانها للمراد من النظم فإنها تُعطينا مثالاً من العمل الأدبي أو التعبير الفنيّ الذي يؤدي به الناظم معاني الكتاب وقواعد العلم الذي ينظمه ، وهي كما رأينا من حيث الصناعة غاية في الانسجام والبلاغة ، بحيث تجعل الطالب يتلقى حقائق العلوم وهو متأثر بسحر البيان ومأخوذ بسر الفصاحة ، واسمع هذا المطلع الجميل ، وتمتّعْ بحلاوة لفظه ورقّة معناه على طُوله وهو من نظم الشقرونية في الطب :

الحمد لله الحكيم المرشد ... المُلهم الخيرَ لكل مهتد
المُنزل الغيثَ من السماء ... الرازق الأقواتَ للنّماء
سبحانه قد سخّر الرياحا ... مفيدةً عبادَه صلاحا
وأرسل اللواقحَ العظيمه ... بين يديْ رحمته العميمه
ما طلعت من غُرر السحائب ... مُبشّرات جمةُ العجائب
تحملُ غيثاً سابغَ الأيادي ... لكل حاضر وكل بـاد
سِيقَتْ لسقْي بلَد مَواتِ ... أحسِنْ بغيث شامل مُواتِ
فاخضرّت الأرض بحسن مَلْبَس ... رافلةً في حلل من سُندُس
رائقةً تُجلَى بحلْي الزهَر ... تسدي السرور وقت مدّ البصر
كم أصبحت عرائسُ الغُصون ... تزهو بدرّ بُردِها المَصُون
وافترّ ثغرُ نوْرها المعطار ... مُكلّلاً بلؤلؤ الأمطار
أبدت سنابلَ تحيط بالثمَر ... في نسق تحكي عقوداً من درر
نُوارُها مُختَلِفُ الأشكال ... يسمو على قلائد اللآلي
من ذي أكاليلَ وذي أبْواقِ ... وذي مَداهِنَ وذي أحداقِ
غنّى عليه النحلُ بالمَزامِرْ ... عن أمر من يقهر كل آمِرْ
وكل نبْت من حشيش أو شجَر ... خلقَهُ لحكمة ربّ البشر
ما خلق الرحمنُ شيئاً عبثا ... من كل برّيّ وما قد حُرِثا
يرزقُنا في كل فصل نِعَما ... سبحانه عمّ البلادَ كرَمَا
نحمده حمد مُقرّ بالنعم ... معترف ببعثه بعد العدم
معتقد أن ليس يُذْهِبُ الضرر ... إلا الذي أجرى القضاء والقدر

ثم الصلاة والسلام السرمدي على الرسول المتقي محمد
وآله والصحب والاتبـاع ما انهلّ وابلٌ على البقاع
وبعد فالقصد بهذي الجُمَل ذكرُ مزاج قُوتِنا المستعمل
طبع الحبوب ومُركّب الغِذا وما له نفـع وما له أذى
وكل قوت في اصطلاح المغرب لدى الحواضر وعند العرب
كذلك الخُضَرُ والمَقاني وما يُرى منهنّ في الأوقات
وبَقْلها البرّيّ والبستاني وغالب المأكول من لُحمان
ومن فواكهَ على العموم من طيّب يرضي ومن مَذْموم
وما يخصّ اللحم من تَوابِل وما يُجيدُ طَعْمَهُ للآكِل
وربما نذكُر مـن ميَاه أمراً كثيرُ الناس عنه ساهي
نُتبعه أدويةً نفيسـه تذهب أمراضاً بدت خسيسه
كما نجيد القول في اللبـاس وفي المساكن ومأوى الناس
ونبسط التعبير في المقـال كيما يرى مطابق السؤال
واسأل الوهّاب نيل الأرب فهو المرجّى لبلوغ الطلب

وكان هذا النظم جواباً من العلامة ابن شقرون لسؤال من تلميذه الشيخ صالح بن المعطي ، وهو ما أشار اليه بمطابقة السؤال ، والمنظومة كلها من هذا النمط ، ولولا أني أطلتُ بجلب مطلعها كله لأعطيت منها أمثلة في موضوعها لأنها مزدوجة الفائدة ، فهي تعلم الأدب وتدْبير الصحة .

وللعلماء في مطالع أنظامهم نوادر من ألطفها ما يحكى أن ابن مالك لما شرع في نظم ألفيته قال في مدحها :

وأستعينُ الله في ألفيه　　　مقاصدُ النحو بها مَحْوِيه
تُقرّب الأقصى بلفظ مُوجَز　　　وتبسُط البذل بوعد مُنجَز
وتقتضي رضاً بغير سُخْط　　　فائقةً ألفية ابنِ مُعْط
فائقةً منها بألف بيت　　　........................

ولما نظم هذا الشطر توقّف ولم يُفتَح عليه في تمامه ، ونام ليلته قالوا فرأى ابنَ معطي في نومه وهو لا يعرفه ، فأنشده أبياته هذه ، فأجاز شطره الأخير بقوله :

والحيّ قَدْ يغلِبُ ألْفَ مَيْت

فاستيقظ ابن مالك من نومه واستحى مما قال في حق ابن معطي وحذّف ذلك الشطر وقال عقب الأبيات الثلاثة التي قبله :

وهْو بِسبْقٍ حائزٌ تفضيلا　　　مستوجبٌ ثنائيَ الجميلا
واللهُ يقضي بهباتٍ وافرة　　　لي وله في درجات الآخرة

وتكررت الحكاية مع السيوطي ، فإنه لما نظم ألفيته في النحو قال في مطلعها :

النحوُ خيرُ ما به المرء عُني   إذ ليس علم عنه حقاً يغتني
وهذه ألفية فيه حوَتْ   أصُولَه ونفعَ طلاب نوَتْ
فائقة ألفية ابن مالك   لكونها واضحةَ المسالك
وجمعِها من الأصول ماخلت   عنه وضبْط مُرسَلاتٍ أُهملت

لكن لم يُحكَ لنا عن السيوطي أنه رأى ابن مالك في نومه وعاتبه كما عاتب ابنُ معطي ابن مالك .

وقد دخلت هذه المنظومات في حياة طلبة العلم وتمكّنتْ من نفوسهم ، فبقطع النظر عن استعمالهم لها في دراساتهم المتنوعة واحتجاجهم بأبياتها في مناقشاتهم العِلْمية ، هناك بعض أبيات ومقاطع منها تجري على ألسنتهم ، وربما على ألسنة العموم مجرى الأمثال لدلالتها الشاملة وحسن صياغتها ، كالشطر الثاني من قول ابن عاشر في نظمه المسمى بالمُرشِد المُعين على الضروري من علوم الدين :

فصْلٌ وطاعةُ الجوارح الجميع
قوْلاً وفعلاً هو الاسلامُ الرفيعْ

فهذا الشطر نجد حتى العامة يرددونه في المناسبات المقتضية له كالوفاء بالعهد وأداء الأمانة وممارسة الشعائر الدينية فيقولون « قولاً وفعلاً هو الاسلام الرفيع » .

ومن اللطائف ما يجري على الألسنة من قوله في باب الحج : (واسْرِعَنْ في بَطْنِ وادِي النار) وذلك في أماكن المرور الخَطِرة وملتقى الطّرق التي تكثر فيها السيارات ونحوها .

ومن هذا الباب ما يجري على الألسنة من قول ابن مالك في الألفية : (وحَذْفُ ما يُعلَم جائِز ...) وذلك عند عدم التصريح بما يُكْرَه وما لا لزوم لذكره .

ومنه قوله (كما لَنا الاّ اتّباعٌ أحمدا) في باب الابتداء تمثيلا لوجوب تقديم الخبر عند الحَصْر . على حسب ما أشار له الشطر الأول من البيت وهو قوله (وخبَرَ المحصور قدّمْ أبدا) فيجري تمثيله ذلك على لسان أهل العلم وجمهور المؤمنين عند إظهار التعلّق بالتمسك بالسنة واتباع الرسول (ص) .

ولا شك أن الكلام حين يرقى إلى هذه الدرجة من دورانه على الألسنة وجرَيانه مجرى الأمثال العامّة ، يكون آخذاً بحظه من حُسْن الأداء وقوة التعبير ، وذلك ما يؤكد القول بأن هذه الأنظام وإن اشتملت على أغراض علمية صرفة أو تعليمية بعبارة أخرى ، فإنها تكتسي حلة من البيان والوضوح تجعلها باعتبار آخر من الآثار الأدبية المرموقة .

وإلى هنا نكون قد تكلمنا على مطلق نظم العلوم ، أو جانب من النظم التعليمي هو المتعارف عند اطلاق هذا الاسم . ولكن

هناك نوعاً غريباً منه يجب أن نفرده بكلمة ، لأنه أدل على مقدرة أصحابنا الفقهاء ، وبراعتهم الأدبية ، وهو النظم الذي يستعملون فيه رموزاً واصطلاحات خاصة فيُلمّون في المنظومة الصغيرة والأبيات القليلة بقواعد علم كامل من العلوم ويُحصّلون مسائله ويضبطون أصوله بحيث لو لم يَتأتَّوْا لها ذلك التأتي اللطيف ويسلُكوا لها ذلك المسلك العجيب لما وسِعَتْهم الكتب المطولة والموضوعات المبسوطة لاستيفاء تلك الأغراض وتحصيل تلك المقاصد .

ومن أمثلتِه قصيدة حِرْز الأماني في القراءات السبع ، المعروفة بالشاطبية ، نظم أبي القاسم الشاطبي رحمه الله ، فإنها على اختصارها في الجملة (إذ تبلغ ١٣٠٠ بيت) جمعتْ زُبْدةَ القراءات واحتوت من ذلك على علم غزير . ولذلك نجد الكثير من أهل العلم يحفظونها وقد خضع لها كبار الشعراء والبلغاء ، وحذاق أهل الرواية والقراء . قال ابن خلكان في ترجمته للشاطبي : « إنه أبدع في حرز الأماني ، وهي عُمْدةُ قراء هذا الزمان في تعلمهم ، فقلَّ من يشتغل بالقراءات إلا ويُقدّمُ حفظها ومعرفتها ، وهي مشتملة على رموز وإشارات لطيفة ، وما أظنه سُبِق إلى أسلوبها » .

واصطلاحه هو الذي أشار إليه بقوله :

جعلت (أبا جاد) عــلى كل قارىء
دليلاً على المنظوم أولَ أولا

ومن بعد ذكر الحرفِ أُسْمي رجالَه
متى تنقضي آتيك بالواوِ فيَنْصلا

سوى أحرفٍ لا ريبــةٌ في اتصالها
وبالقَيْد أستغني عن القيد إنْ جلا

ومن هذا الباب قصيدة (غرامي صحيح) لابن فَرْحٍ الاشبيلي التي جمع فيها ألقاب الحديث بأسلوب عجيب ومنهج غريب ، إذ سلك بها مسلك أهل الغزَل في ظاهر اللفظ وحمَل كلَّ لقب من ألقاب الحديث على معنى يليق بهذا الغرض، حتى لو أُلْقِيَتْ على عربي فصيح خالي الذهن من اصطلاحات أهل الحديث لما فَهِمَ منها إلا معاني غزلية رقيقة تنشرح لها النفوس وتغتبط بها القلوب ، ومطلعها :

غرامي (صحيحٌ) والرَّجا فيك (مُعضَل)
وحُزني ودمْعي مُطــلَقٌ (ومُسَلْسَلُ)

ومن هذا الباب أيضاً قصيدةُ أبي الجيْش محمد ضياء الدين الخزرجي الأندلسي أو السَّبْتي المعروفة بالخزرجية في علم العروض التي سارت بذكرها الركبان ، والتي جمعت مُهِمّاتِ هذا العلم في تسعين بيتاً ونَيِّف ، بفضل ذلك الأسلوب

البديع الذي ألمعنا إليه وهو الرمز والاشارة ، فبعد أن يقول في مطلعها :

لِلشعر مِيزانٌ يُسمّى عَرُوضَه
بها النقص والرجحان يَدريهما الفتى

فيأتي به نظماً واضحاً لا غُبار عليه حتى في الخَرْم الذي بأوله ، يقول رامزاً لأجْزاء التفْعيل العَشرةِ مُشيراً إليها بحروف أبجد :

أصابتْ بسهمَيْها جوارحنا فـدا
ركوني بِهِمّـة كوقْعيْهما سوا
فمـا زائِراتي فيهما حجَبْتُها
ولا يَـدُ طَولاهُنّ يعتادُها الوفا

ومنه كذلك على طريقة التورية كما في نظم غرامي صحيح ، منظومة أبي القاسم المُهَلّبي البلنسي لمثلث قُطرب في اللغة وهو الذي يقول في طالعته :

يا مُولعاً بالغضب	والهجر والتجنب
في جده واللعب	حبّك قد برّح بي
إن دموعي غَمْرُ	وليس عندي غِمْرُ
يا أيها ذا الغُمْرُ	أقْصِرْ عن التعتّب

إلى آخر وقد شرحه أحد المغاربة نظماً على هذا المِنْوال وهو المُثْبَتُ في مجموع المتون الكبير المطبوع طبع حجر بفاس .

ويظهر أن هذا النوع من النظم قد انفرد به الأندلسيون أو كانوا هم الذين نهجوا سبيله لغيرهم فإنا لا نعلم لمشرقي نظماً على منواله إلا ما كان للعلاّمة الصبّان الذي عارض قصيدة غرامي صحيح بأخرى على مثالها يقول في أولها :

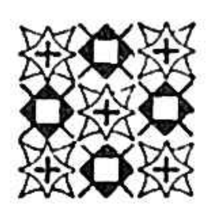
صِلُوا (صحيحَ) غرام صبرُه ضعُفا
وبدّلوا (قَطْع) من في حبكُم شغِفا

كما عارض قصيدة الخزرجية بقصيدة لامية استعمل فيها نفْس رموز أبي الجيش وهي التي يقول فيها :

وبعد فعلم الشعر فَنٌ مؤكد
فبادر اليه واستمع فيه ما حلا

وبعد ، فهذه كلمة قصيرة في هذا اللون من ألوان أدب الفقهاء ، وهو النظم التعليمي ، لم نُرِدْ بها إلا التنبيه على وجه آخر من وجوه الاحسان : الذي لهم في ميدان الأدب ، والمشاركة التي لا تزري بهم أبداً في الانتاج الأدبي سواءٌ كان خاصاً بهم أو عاماً ، وإلاّ فإن بحث النظم التعليمي لا تفي به

كلمة قصيرة أو طويلة ، وما أحراه أن يفرد بالبحث ويكون أطروحة لبعض الدارسين تلم بأطرافه وتشير على سبيل التفصيل لأبعاده التي ما نظن أن كتاباً واحداً أو رسالة جامعية مفردة تحيط بها .



كلمة ختامية

الآن وقد أثبتنا بما لا مزيد عليه من البيان والتبيين ، والأمثلة والشواهد ، أن أدب الفقهاء أدب حيّ مُعبّر ، لا يقصر عن أدب غيرهم ممن ليسوا بفقهاء ، وان التهمة التي تُوجّه اليه بالضعف والتخلف حتى جعلته مثلاً مضروباً لكل أدب بارد سخيف ، هي تهمة باطلة فيها كثير من التجني والظلم لهذا الأدب والمنتجين له ، نريد أن نقول في كلمة ختامية لهذا البحث ، إننا لا ننفي أن بعض الفقهاء ليس لهم من الأدب حظ ولا نصيب ، وأنهم حين يتعاطون النظم يتكلفون ما ليس من سجيّتهم ، فيأتي نظمهم فجّاً ركيكاً .. ولكن يجب أن لا ننسى أن في أدب غيرهم من الفُسولة والرداءة ما يُغطّي على أدب الفقهاء الذين يُقرّون بأنهم متطفلون على موائد الأدباء ، بخلاف مَن يقول أنا به زعيم . وكلّنا نعلم أن شواهد علماء البلاغة التي يوردونها مثالاً للتنافر والغرابة ومخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد وغير ذلك من عيوب اللفظ والمعنى ، هي من كلام كبار الشعراء المعترف لهم بالسبق في مضمار صناعة النظم ، وليست من كلام الفقهاء ، وكذلك شواهد عِلْمَي العروض والقافية على ما يعتري النظم

كلمة ختامية

الآن وقد أثبتنا بما لا مزيد عليه من البيان والتبيين ، والأمثلة والشواهد ، أن أدب الفقهاء أدب حيّ مُعبّر ، لا يقصر عن أدب غيرهم ممن ليسوا بفقهاء ، وان التهمة التي تُوجّه اليه بالضعف والتخلف حتى جعلته مثلاً مضروباً لكل أدب بارد سخيف ، هي تهمة باطلة فيها كثير من التجني والظلم لهذا الأدب والمنتجين له ، نريد أن نقول في كلمة ختامية لهذا البحث ، إننا لا ننفي أن بعض الفقهاء ليس لهم من الأدب حظ ولا نصيب ، وأنهم حين يتعاطون النظم يتكلفون ما ليس من سجيّتهم ، فيأتي نظمهم فجّاً ركيكاً .. ولكن يجب أن لا ننسى أن في أدب غيرهم من الفُسولة والرداءة ما يُغطّي على أدب الفقهاء الذين يُقرّون بأنهم متطفلون على موائد الأدباء ، بخلاف مَن يقول أنا به زعيم . وكلّنا نعلم أن شواهد علماء البلاغة التي يوردونها مثالاً للتنافر والغرابة ومخالفة القياس وضعف التأليف والتعقيد وغير ذلك من عيوب اللفظ والمعنى ، هي من كلام كبار الشعراء المعترف لهم بالسبق في مضمار صناعة النظم ، وليست من كلام الفقهاء ، وكذلك شواهد عِلْمَي العروض والقافية على ما يعتري النظم

من اختلال وعدم انسجام بما يدخله من زحافات قبيحة وعلل مستكرهة ، هي من كلام أعلام الشعراء وفصحاء العرب جاهليين واسلاميين ، فالفقهاء ونعني بهم العلماء على العموم ، إذا لم ينظموا على الطبع والسجية ، يقعون في مثل ما وقع فيه أئمة الصناعة وأمراء الكلام ، وهم بحكم علمهم بما يُترخَّص فيه من مخالفة للقواعد ومجاوزة للقيود يكثر منهم التساهل ولا سيما عندما يعتمدون التقطيع ويتحاكمون إلى أجزاء التفعلة فيجيء نظمهم قلقاً مضطرباً ، ولكنهم لا يرون بذلك بأساً ، لأنه جار على المِسْطَرة كما يقولون . وقد لاحظتُ غير ما مرة على بعض النظّامين ما في كلامهم من الكسر والسقوط ، فكانوا يلجأون إلى التقطيع ويحتجّون بأنهم على سَوِية العروض.

وهذا فيما يكون من الشكل غيرَ مُخِل بالمُحْتوى ، أما ما اشتمل على الخَلَّتين واعتورَتْه العلةُ من الناحيتين ، فهو مما لا كلام عليه ، وصاحبُه حريّ بأن لا يعدّ في الفقهاء ولا في الأدباء ، ومع ذلك ففي كلام فحول الشعراء ما يذهبُ بعضُه بكل ما في كلام هؤلاء الفقهاء من مآخذ ومعايب . ولو ذهبنا نضرب الأمثال ونتخيّر النماذج مما انتُقِد على متقدمي الشعراء فأحرى متأخريهم لضاق بنا المجال عن استيعاب ذلك ، ويكفينا أن نعطي مثالاً واحداً ، وهو هذان البيتان من قول بشار بن بُرد زعيم الشعراء المولَّدين :

إنما عظمُ سليمى قصَب   قصبُ السكّر لا عظمُ الجمل
وإذا أدنيتَ منها بصَـلا   غلب المسكُ على ريح البصل

فأي شعر لفقيه انحطّ إلى هذا الدّرك من السخف والغثاثة حتى تُضرَب الأمثال بشعر الفقهاء ويُنسى هذا النموذج » من شعر الأدباء؟ فإذا قيل ان هذا وشبهه قليل في كلام الشعراء المطبوعين ، قلنا انه كذلك قليل في كلام الفقهاء أو طبقة قليلة منهم على الأصح ، مع العلم بأن الشعر عندهم انما هو هواية ، وليس حرفة ، وهذا القليل من المحترفين المختصين لا يقال له قليل، فكان الأولى أن «ينوّه به كما يُنوّه » بقليل القِلّة من الفقهاء الذي جاء على مثاله أو قريباً منه إن تسامحنا في المقارنة .

وبسطُ القضية بمزيد من الوضوح أن أدب الفقهاء الحقيقي هو ما عرَضناه وتعرّضنا له بالنقد والتحليل في الأبواب المتقدمة والتراجم السابقة ، وما لم يكن على غِراره فهو من عمل ضِعاف الفقهاء ، وشيء قليل بالنسبة إلى الكثير الطيب الذي أوردنا منه ما أوردنا ، فإطلاق الكلا م إلى حدّ إرسال المَثل بضعف أدب الفقهاء لا يُوافق الحقيقة ، وفيه تحامل كبير على هذه الطبقة من رجال الفكر وحَمَلَة القلم ، ويُنتَج عنه صرف النظر عن كثير من الروائع التي تفيد أدبنا غِنىً وثروة كما بيّنّاه فيما سلف ، ولو كان هناك حق وإنصاف لما حُمِل الاحسان الكثير في إنتاج هذه الطبقة الشِّعْري على

الاساءة القليلة التي وقعت منهم فيه ، مثلما عليه الحال مع الأدباء والشعراء الكبار على الأقل ، وهم الذين كان الواجب أن لا تُغتفَر زلتهم ، لأنهم بمحل القدوة في هذا الشأن .

وجانب آخر من القضية هو أن بعض الفقهاء كثيراً ما يتساهلون في أنظامهم العلمية لقصدهم إلى عموم الفائدة وتقريب المعنى إلى الطلاب ، وهذا ليس من الحق أن تُؤْخَذَ به جميع أفراد هذه الطبقة ويَعمّها حُكْمُه ، خصوصاً وان الكثير منهم كان على خلاف ذلك ، ينظم الفوائد العلمية ويُحصِّل قواعد الفنون في شعر بليغ مُحكَم على نحو ما مثّلناه في باب النظم التعليمي حتى قيل في منظومات بعضهم في الكيمياء القديمة انها إنْ لم تُفِدْكَ العِلْمَ أفادتك الأدب .

وقد نبه على هذه الظاهرة العلامة الأديب أبو العباس أحمد القري صاحبُ نفح الطيب ، في كتابه فَتْح المُتعال في مدْح النّعال ، لمّا أورد أبياتاً من ألفية الحافظ زين الدين العراقي في السيرة النبوية ، تتعلق بوصف النعل الشريفة ، على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، ولاحَظَ ما فيها من دَرَكٍ عليه صناعة ، وبعد أن الْتمسَ المَخْرَج لذلك ، قال معتذراً عنه : « على أن نظمه رحمه الله نظمُ فقيه . والمقصود الافادة وهي حاصلة على كل حال ، وقد سلك هذه الطريقة جماعة من العلماء الصلحاء أعني عدَم تحسين النظم ، إذْ قصدُهم الجميل ايصالُ المعاني إلى السامع ولم يشتغلوا بحَوْك الكلام

على طريقة الأدباء كابن الوردي وأنظاره ، فجزى الله الجميع عن الدين خيراً . ولقد كان شيخنا مفتي مدينة فاس العلامة سيدي الشيخ محمد القَصَّار القيْسي الفاسي الغرناطي الأصل ، كثيرَ الاصلاح لأبيات العراقي في ألفية علوم الحديث ، وكنت لا أحِبّ ذلك منه ، مع أن مقصده رحمه الله حسن ، والتسليم أسلم والله سبحانه وتعالى أعلم » .

هذا كلام المقري . ونحن نسجل الفكرة الأساسية فيه ، وهي أن ما يقع في نظم بعض العلماء من مآخذ ، منشأه هو التساهل الذي يحملهم عليه قصدُ النفع والتفهيم بأقرب الطرق وأسهل العبارات ، وليس ذلك من عجز ولا قصور والدليل على ذلك أن قائل هذا الكلام والمُلاحِظ على النظم المَعنِيّ بالأمر ، أي ألفية العراقي ، هو نفسُه من أكبر الفقهاء وألمع الأدباء ، وهو الذي ألّف لنا أعظم موسوعة عن الأندلس وأدبها وعلمائها وشعرائها أعني كتاب ، نفح الطيب ، وشعرُه ونثرُه من الطبقة الممتازة ، وله نظم تعليمي مشهور في غاية الجودة ، ومنه أرجوزتُه المعروفة في علم الكلام المسماة بإضاءة الدّجُنَّة في عقيدة أهل السنَّة . ولا نطيل في التعريف به فالمقري قد طبقت شهرتُه المغرب والمشرق عالماً وأديباً ومؤرخاً للأدب العربي مُعتمداً عند جميع الباحثين . ومع هذه المكانة الأدبية التي له فهو يتسامح مع الحافظ العراقي ويرى عدم التعلّقِ بما في نظمهِ من لِينٍ ، لأن قصد النفع

سوّغ له ذلك ، وان كان هو لا يرتكبه ، وهذا ما جعلنا نتحفظ بإزاء قوله في العراقي « على أن نظمه رحمه الله نظم فقيه » إذ هو يتناقض مع الفكرة الأساسية التي سجلناها عليه ، وأولُ ما ينتقض بنظمه هو الذي لا تتنزّل عليه تلك الكلمة ولا يقبل هو أن تقال فيه مع أنه من جملة الفقهاء .

ودليل آخر يُؤخذ من كلام المقري ، وهو عناية شيخه الامام القصار بإصلاح الأبيات الضعيفة في ألفية الاصطلاح للعراقي . فهذا فقيه كبير وعالم شهير لا تَخْفَى عليه علل النظم التي دخلت بعض أبيات الألفية الشهيرة ويُحاول اصلاحَها ، وما ذلك إلا لتمكنه من صناعة الشعر واختلاف نظره عن نظر العراقي في مسألة التساهل في قواعد النظم ، وان كان نظماً تعليمياً ، فليس الفقهاء باطلاق ممّن يُقِرّون هذا النظر ويأخذون به ، فالحكم عليهم بعين الجمْع هو من الخطإ الذي قصدنا إلى تلافيه في هذا البحث .

وإذا كان المقري معروفاً لدى عامة المشتغلين بالبحوث العلمية والأدبية فإن القصَّار هو شيخه وشيخ العلماء المغاربة في عصره ، بل ان مُترجِميه يُحلّونه بشيخ الأعصار والأمصار وقد تجاوزت شهرتُه في زمنه حدود بلاده ، فيُحكى أن الشيخ عبد الواحد بن عاشر لما حجَّ ومرَّ في طريقه بمصر سأله الشيخ عبدالله الدنوشري مِن علماء مصر ، عن شيوخه فسمّى

له منهم الامام القصَّار فقال الدنوشري في مدحه :

قـــد حـاك شقّاتِ العلومِ أيمّةٌ
وكسَوْا بهـــا بالفضل مَن هُو عار

رقّت حواشيها ، ورقّ طِرازُها
لكنّهـــــا تحتـــاج للقصّـــار

وهذا شعر جيد يشتمل على تورية مليحة ، وهو مما يقوله فقيه في فقيه ، ويُحسِّن موقعَ هذه التورية ، العِلمُ بأن أسانيد المغاربة في العلوم كلها تدور على القصار ، فهو من المجدّدين لشباب العلم والمُطرّزين لحُلّته الناصعة البياض .

وعلى مقامه العلمي هذا كان له باع في الأدب وشعر حسن جميل ، ومنه الأبيات التي يقولها في الحض على زيارة الوالدين بعد موتهما ، وهي الأبيات التي ادعاها كثير من الشعراء ونصها :

زُرْ وَالِديْكَ وقِفْ عـلى قبريْهما
فكأنّني بـــكَ قد نُقِلتَ إليهما

لو كُنتَ حيثُ هما وكانا بالبقَـا
زاراك حبْواً لا عـــلى قدميْهما

أنَسيتَ عهدَهمــا عشيّةَ أُسكِنا
دارَ البِلى وسَكنتَ في داريْهِما

مــا كان ذنبُهمــا إليك وإنّمــا
منَحاكَ محضَ الودّ من نفسَيْهما

كانــا إذا ما أبصرا بــكَ عــلّةً
جزِعَا لمــا تشكو وشقّ عليهمــا

كانــا إذا سَمِعا أنينَك أسْبَلا
دمْعيْهما أسفاً عــلى خدّيْهِما

وتمنّيَــا لو صادفــا لك راحةً
بجميــع مــا يحويه ملكُ يديهما

فلَتَلْحَقنّهُما غــداً أو بعــدَه
حتْماً ، كما لحِقا همــا أبويْهما

ولَتندمَنّ عــلى فعالك مثلمــا
ندِمَــا همــا أيضاً على فعْليْهما

بُشراك إن قدّمتَ فعــلاً صالحاً
وقضيتَ بعض الحق من حقيهمــا

وقرأت من آي الكتاب بقدْر ما
تَستطيعُه وبعثتَ ذاك إليهمــا

فاحفظ بُنيّ وصيتي واعمل بهــا
فعسى تنــالُ الفوزَ من برّيْهما

ولا أحتاج أن أنبّه على ما في هذه الأبيات من عاطفة شريفة وشعور نبيل زيادة على متانة حوْكها وحُسْن صياغتها . ومن قوله محذراً من بعض المَهامّ ذاتِ المسؤولية الثقيلة وان كانت في ظاهرها مما يُرغَبُ فيه :

تِسعٌ أبَى منها أولُو الأحلام والهمم السنيه
إلاّ بحالِ ضرورة تدعو لها مَعْ حُسْن نيه
وهي الشهادة والوسَا طة والحكومةُ في القضيه
وكذا الامامة والوديعةُ والتعرّضُ للوَصيه
ثم الاجابة للطعا م وللولائم والهديه
فسد الزمان وأهلُه إلا القليلَ من البريه

وهو شعر تظهر عليه مسحة العلم مما يتضمنه من الورع وعلو الهمة والتحري في الحكم ووزن الكلام ، فإن الاستثناء في البيت الثاني والشطر الأخير إنما هو من تثبّت العلماء .

ومن نظمه التعليمي هذا البيت السائر :

الاستِوَا والوجْهُ والعينُ ويَدْ
صفاتٌ أو فوّضْ أوْ أوّلْ ما وَرَدْ

فجمع في بيت مفرد أمثلةَ المُتَشابِه ومذاهبَ المسلمين بإزائه من السّلَفِ والخَلَفِ وقولِ الأشْعري إنه صِفَة .

وهذا أمر يدلّ على مقدرة تامة وملكة راسخة ، ومَن كان بهذه المثابة ويُصحّح الخطأ في نظم العراقي لا يُقال في شعره أنه نظم فقيه ..

فهؤلاء ثلاثة فقهاء ، اثنان منهم كما رأينا فَوْقَ النقد ، وواحد محمول على التساهل لمقصد شريف ، فكيف يُحكَم بالثلُث على الثلُثين حتى مع التسليم بمَحْجُوجيّة هذا الثلُث ، وما رأيناه في باب النظم التعليمي يدفَعُ ذلك .

هذا ومن اللطائف التي يحسُن ايرادُها هنا أن الصلاح الصَّفَدي أنشد في شرحه للامية العجم ، وهو يمثل للشّعر الذي أتى على أسلوب الفقهاء هذه الأبيات لأبي نواس :

فاخرَتْ كلَّ شراب فسمَتْ رتبةً ليس يُضاهيها شراب
لا نُماريك على تحريمها إن نقُلْ ما حرُمت طال الخطاب
حرُمَتْ ، ما حرُمت ، بل حرُمَتْ
جاء في التنزيل نهيٌ واجتناب
قال هل أنتُم؟ فقلنا نحن لا! وسكتْنا كلّنا واستدّ باب

ثم عقّب عليها بقوله : « كأن يقال أبو نواس فقيه غلب عليه الشعر ، والشافعي شاعر غلب عليه الفقه .. والشافعي والخليل بن أحمد وأبو بكر بن دُرَيْد معدودون من العلماء الشعراء » .

ولا أدري مدَى صحة هذه المقالة بالنسبة إلى فقه أبي نواس بالخصوص ، ولكني أفهَمُ منها الاعجاب ببراعة أبي نواس في استخدامه لجَدَل الفقهاء في أبياته الرائعة ، وأعجَبُ بحُسن رأي الصفدي ، وهو الأديب الضليع في عدم مجافاة الفقه للأدب ، وأن الفقهاء والعلماء يكونُون شعراء بلغاء ، ولا يُخِلّ فقهُهم وعلمُهم بقيمةِ أدبهم .. ويحمِلُني هذا أيضاً على إيراد تعليقه على أبيات للعلامة الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد مما مثَّل به في هذا الصدد وهي :

كم ليلةٍ فيك وصَلْنا السّرى ... لا نعرف الغمضَ ولا نستريح
واختلف الأصحابُ ماذا الذي ... يُزيل من شكواهم أو يُريح
فقيل لي تَعرِيسُهم ساعةً ... وقلتُ بل ذِكرُك وهو الصحيح

وهذا نصّ التعليق : « قلت انظر إلى هذا النَّظْم ما ألطف تركيب ألفاظه وأحلاه ، وكونه استعمل طريق الفقهاء في البحث في ذكر اختلاف الاصحاب ، وانــه قيل كذا وقيل كذا ، وقلت كذا وهو الصحيح ، كأنه إمامُ الحَرَمَيْن ، وقد ألقى درْساً في مسألة فيها خلاف بين الأصحاب ، وقد رجَّح ما رآه هو عنده من الدليل ، وما رأيت أحسن من هذا بينما هو يصف أحوالهم في السّرَى ومَشاقَّهم في التعب وتَشاوُرهم فيما بينهم ، وما أشار به كل منهم في إزالة ما حصل لهم من العَناء ، إذا به قد برز من بينهم برأي أدخل

فيه ذكر الممدوح ونصَّ على تصحيحه ، فكأنه في حلقة الدرس وقد شرع في مسألة خِلافية . ويَحرُم هـذا النظم على غير الشيخ تقي الدين :

فلم تكُ تصلُح إلاّ لـه ولم يك يصلح إلاّ لهـا

وما أحقَّه لو أنشد قول الأرَّجاني :

أنا أشعَرُ الفقهاء غيرَ مُـدافَع
في العصر ، لا بـل أفقَهُ الشعراء ...

وبعد هذا وذاك يُجمِلُ الصفدي الكلامَ في الموضوع فيقول : «وكل من عانى النظم وغلب عليه فن من الفنون مال به إلى ذلك الفن ، وغلبتْ عليه قواعده واستعملها في مقاصده الشعرية وتخيلات معانيه ، وظهر على ما يَرُومُه اصطلاحُ ذلك الفن وأحكامُه ، ألا ترى إلى أبي الفتح البُسْتي ومَقاطيعه المشهورةِ في الأدب والحِكَم ، كيف يغلب عليها ألفاظ المُنجّمين » .

وهذا هو الرأي والإنصاف في المسألة ، لا ما نقل ابن خلدون عن الشاعر أبي العباس الجزنائي الذي بنَيْنا عليه هذا البحث ، وفَتح الباب للطعْن على أدب الفقهاء ، حتى أصبحت كلمة نظمِ فَقيه تُقال لكل شعر نازل ، وتُنوسي كل

ما للفقهاء من أدب رفيع وإنتاج شعري عال ؛ أوردنا بعضَه في الفصول المتقدمة ، وما بقي منه أكثرُ وأطيب ؛ وقد سُرِرنا بما لقينا في كلام الأديب الصفدي من مُوافقةٍ لرأينا وتأييد له ، ولذلك ختمنا به كلمتنا هذه والله الموفق .



فهرست

أَدَبُ الفُقَهَاء

إن كتابنا هذا هو عبارة عن بحث طريف في موضوع أدبي شائق، طالما أغفله الكتاب وتجنّى عليه النقاد، وهو أدب الفقهاء وخصوصًا شعرهم المغموز ظلمًا بالضعف، والمضروب مثلًا لكل شعر ليس بذاك.

وقد قام المؤلف بتقسيمه إلى قسمين:

قسم تناول فيه مادته وعناصره الأولى بحسب الزمن والأشخاص.

وقسم تعرض فيه لموضوعاته وأغراضه على سبيل البسْط والتعريف.

جاعلًا نصب عينيه أريحية الأدب والاهتمام بجمع شوارده ونظم فرائده التي درَجَ مؤلّفو الآداب على استبعادها من النصوص الأدبية لمجرد أنها إنتاج طائفة من الأدباء غلب عليهم وصف آخر غير الأدب وهو الفقه والعلم، مع أن في دراستها وعرضها العرض الذي يجلو محاسنها متعةً وإثراء لأدبنا العربي الأصيل.


ISBN-13: 978-2-7451-8342-2
90000
9 782745 183422


أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban
e-mail: sales@al-ilmiyah.com
DKI www.al-ilmiyah.com

